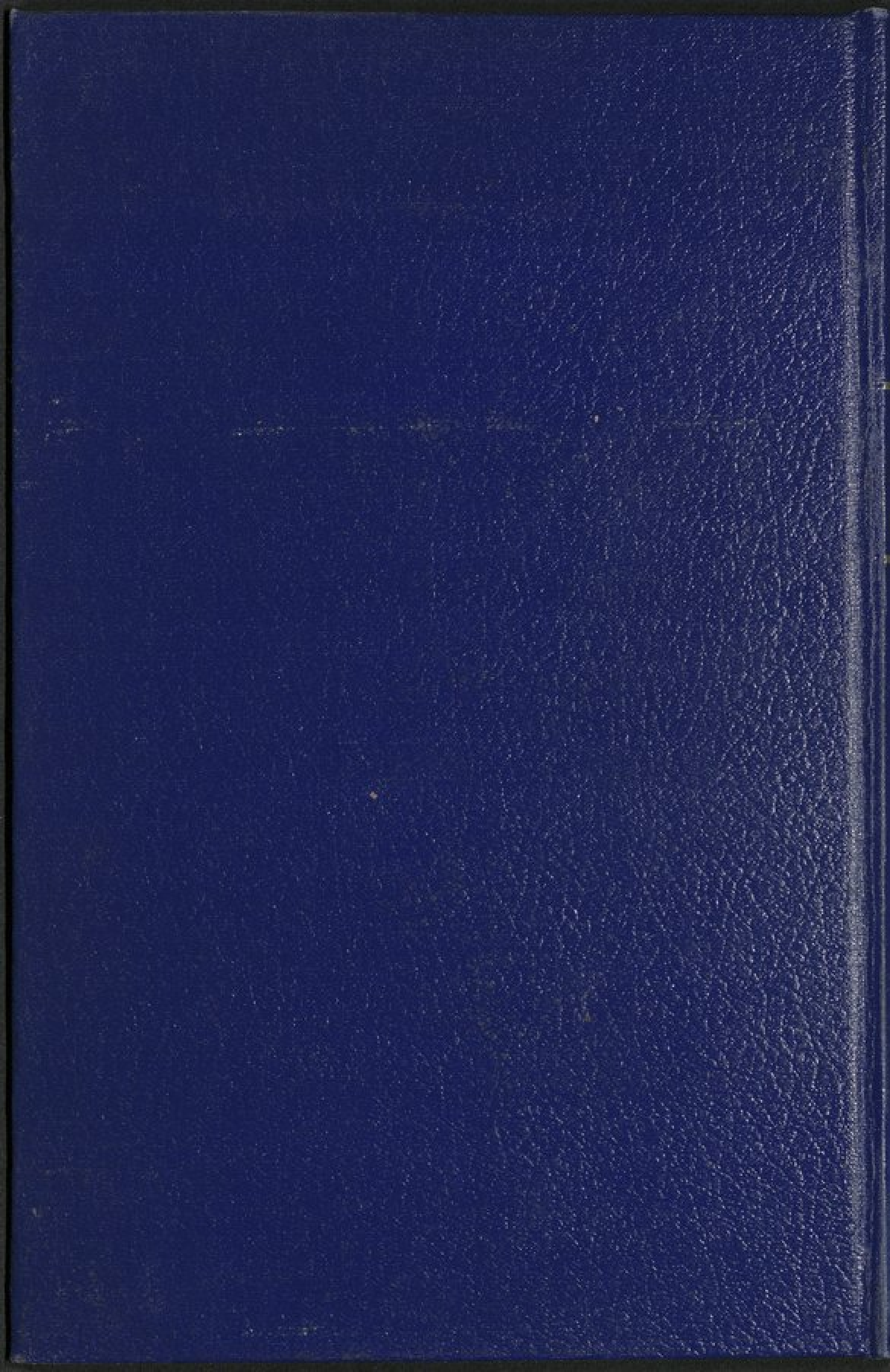
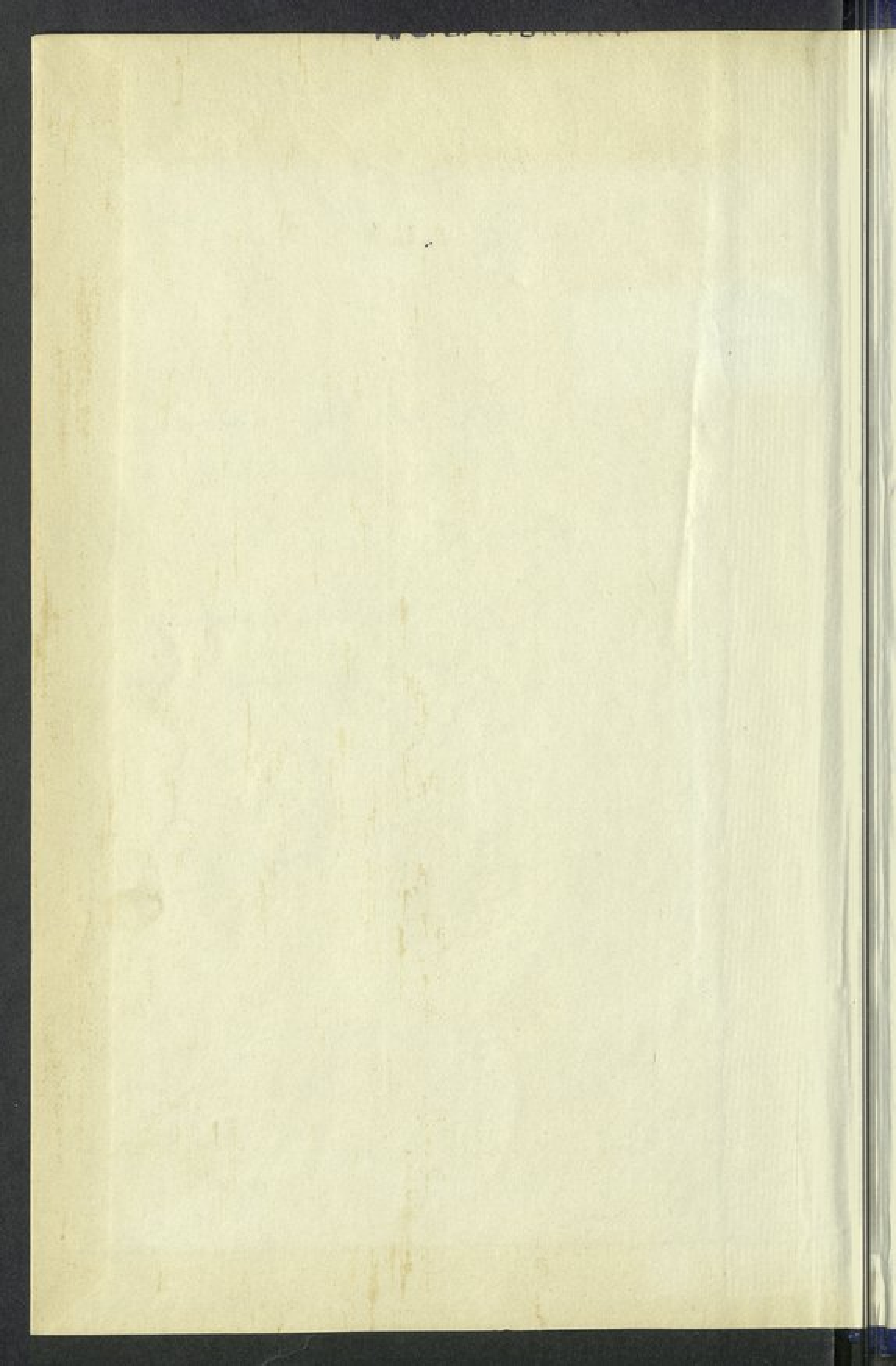
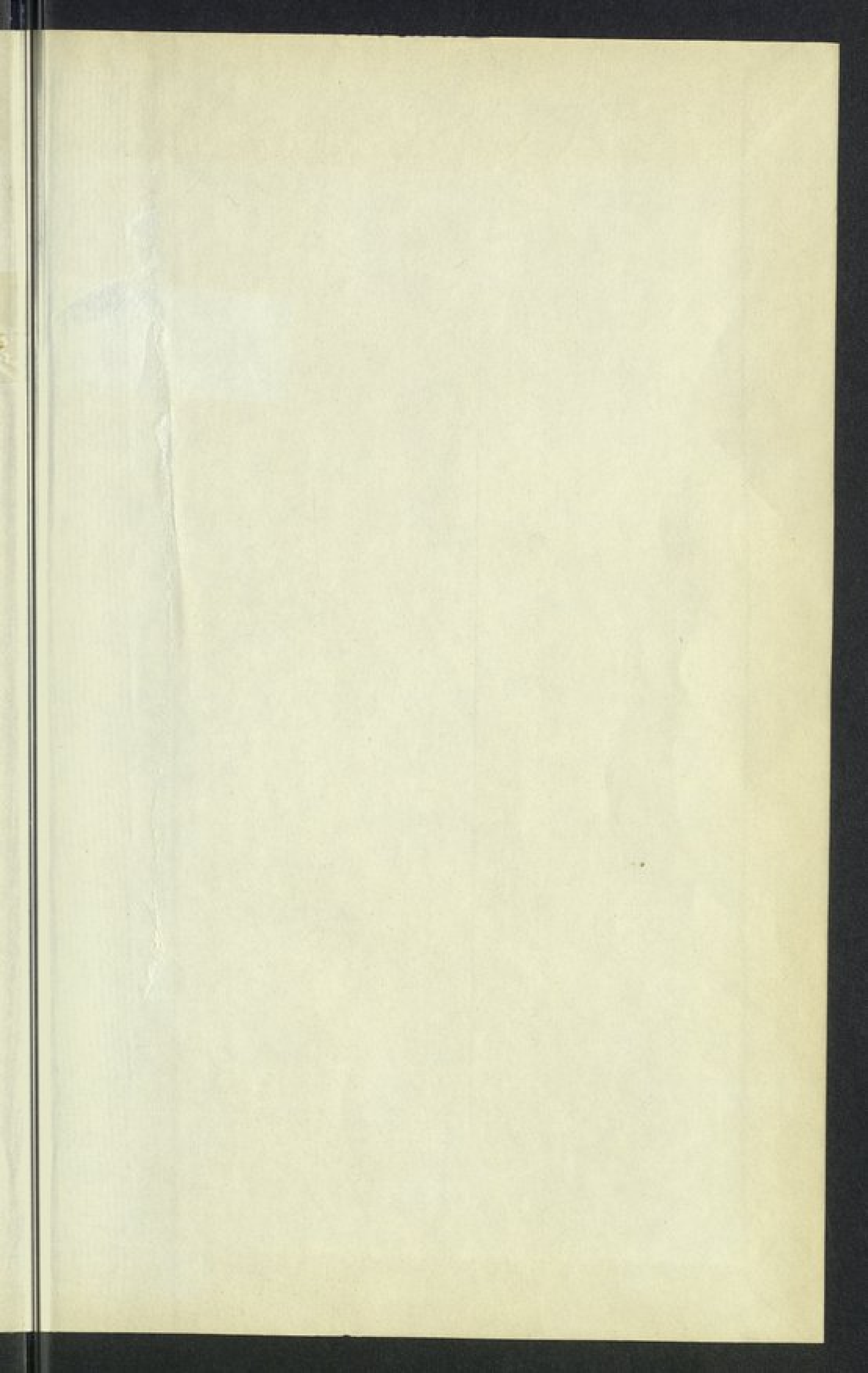






هؤلاء الكفار الخبثاء

يتخلل هذه القصة وعلى
وبشكل كبير ، بعض الأفكار التي
يؤمن بها ويشوهها . أرجو أن تقرأها
وأريد أن أسمع منك تعليقاً عليها
على كل حال ، هي شيقة ومفيدة .

م . ح . خ . ف .

شكراً

السنة الثامنة الجزء ٣ ١٥ ايار ١٩٣٣

المجلة البطريركية

مديرها ومحررها الخوري بولس قرألي الادارة بيت شباب لبنان

دلال

رواية مبنية على حادثة تاريخية وقعت في عهد الامير بشير الكبير
تصف الامير وحاشيته ورجال لبنان في عصره وعادات اهله
وفتح الجيش اللبناني لمدينة دمشق سنة ١٨١٠
ولقلعة سانور في نابلس سنة ١٨٢٩

بقلم

كميد قرألي



دلال

رواية تاريخية في عهد الامير بشير الكبير

بقلم

ك . ق

كميل قرألي

١
الصورة

رآها واقفة في النافذة المطلة على صحن الدار ، وقد توسط رأسها فضاء تلك النافذة الحلاة بالنقوش العربية ، فظنها لاول وهلة صورة قد اتقن الفنان صنعها ووضعها في أطار جميل ، فبرزت ملامح ذلك الوجه الملكي وخطوط تلك القامة الهيفاء في فضاء تلك الصورة الرمادي وكانت بهجة للعيون وسحراً للقلوب . وقد امتد من عريشة الدار الى الجدار المعلقة فيه تلك الصورة غصن جسور نضر ، حتى اذا بلغ اليها التف حول الاطا[illegible] خلسة الى الفتاة ، وجاوزت بعض وريقاته افريز الاطار وتدلى غيرها مرفرفا فوق رأس الصبية وكاد يلمس شعرها الحالك لولا خوفه من ستر لمعانه.

وقف حسن مبهوتاً امام هذه الصورة ولصق عينيه بها . واذا ثغر الفتاة يبتسم له وعيناها النجلاوان ترمقانه بلطف . فحملق في هذه الرؤيا وهرول اليها ناسياً انه في بيت عمه وان العيون ترقبه من كل جهة ، ورفع يديه مبتهلا هاتفاً :

— سعاد ! سعاد !

واذا بصوت أعذب من صوت سعاد يجيبه برقة:

— سعاد في الناعمة يا مير حسن . انا دلال . . . تفضل

ففطن الامير حسن ان امامه ابنة عمه الصغرى ، فسألها مرتبكا

— هل عمي في الدار

فأدركت الفتاة انه مضطرب وانه يحاول اخفاء غايته من المجيء فأجابته بابتسامة خفيفة :

– ابي في حرب الشام . . .

فزاد حسن اضطراباً وتمتم قائلاً

– شكراً لك يا دلال

وخرج وقد شعر ان جرحاً قديماً قد انفتح في قلبه وأن بلسما لطيفاً يدعى دلال قد صب عليه فخفف المه .

«سعاد في الناعمة !» كلمة كشفت في مخيلته الهائجة عن ستار ظهر وراءه على مسرح حياته مشهد مر بحوادثه المبهجة والمؤلمة كطرفة العين. سعاد التي احتلت قلبه وهو لم يتجاوز السادسة عشرة ولا يعرف من الحب سوى الاسم . فقد شعر لاول مرة قابلها بعد خروجه من مدرسة عين طورا ، بعاطفة غريبة سرت الى قلبه ، ولما كانت هذه العاطفة عذبة تركها تحتله بارتياح . ثم أحس ان هذه العاطفة تقوى وتتمكن في قلبه وتتسلط على كل نبضاته . فحاول عبثاً ان ينزعها وخاف من انكشاف امره فلم يبح بها لاحد . وبعد قليل أخذ الأرق يلازمه ليلا والقلق نهاراً وصارت قواه تنحط يوماً عن يوم .

ولما سألته والدته يوماً عن علته اطلعها بسذاجة على حقيقة امره . فتبسمت وخففت عنه وأكدت ان لدائه دواء سهلا لذيذاً هو طلب يد سعاد من امرأة عمه ، وان النجاح مضمون لما بينه وبين سعاد من القرابة والكفاءة في الحالة المالية والاجتماعية . . .

واذا بالمشهد يتغير وظهرت على المسرح والدته عائدة مساء من بيت عمه متثاقلة في خطواتها مطرقة الرأس . وتذكر كيف انها لما رأته ينتظرها تكلفت الابتسام وافهمته ان سعاد مخطوبة سراً للامير فاعور ابن الامير قعدان شهاب حاكم لبنان السابق وانها ستجد له عروساً تفوقها جمالا ومالا . وتذكر أيضاً كيف انه انتفض عند سماعه

هذا الكلام انتفاض العصفور المذبوح واحس ان قلبه انخلع من مكانه وسقط جثة لا حياة فيها .

فوسط لدى الامير حيدر عمه الاقارب والاصدقاء بحجة انه اولى بابنته من الخاطب وكان عمه يردد هذا القول : لا طاقة لي بذلك والبنت مخطوبة خطبة رسمية كنسية وخطيبها لا يرضى بالتخلي عنها والكنيسة لا تسمح بفك الخطبة الا لدواعي خطيرة . لان الخطبة بدء الزواج وما الاكليل سوى وفاء العهد ، والعهد مقدس في الكنيسة وفي شرع الامراء . . . » الى غير ذلك من الكلام الذي جعل الامير حسن يزيد يأساً يوماً بعد يوم .

واخيراً رأى مزاحمه يأتي بخيله ورجله . وقد حدد يوم الزفاف واعلنه الكاهن في الكنيسة ثلاث مرات متوالية وماجت بلدة اعبيه بالاجانب وارتجت بدوي البارود وترويد الرجال وزغاريد النساء حتى ضاق صدره وفكر في مهاجمة بيت عمه واختطاف سعاد . فراسلها سراً بواسطة خادمتها وعلم انها راغبة فيه ولا تمانع في الهرب معه . لكن عبداً لابيه يدعى فيروز اكتشف المؤامرة واطلع والديه عليها فوقفا في وجهه وهدداه لما في الامر من العار عليهما وما يجره من الخلاف بين بيتهم وبيت ابن عمه والامير فاعور . فلم يعد يطيق صبراً وخاف ان يقدم على ما لا يرضاه شرفه وبنو قومه فهرب الى صيدا بعد ان فاز من والدته بمبلغ وافر « وهناك بدد ماله مع الزواني »

علق في بدء الامر بفتاة يهودية تشبه سعاد شبهاً غريباً بعينيها النجلاوين وقامتها الهيفاء ووجهها البيضوي وبشرتها الشفافة المتوردة قليلا . ولولا اتساع في فمها وشيء من الغلاظة القروية في شفتيها الشرهتين ، وبعض الخفة في لحظها ، لخيل اليه انها شقيقتها . ولم يتكلف كثيراً في اجتذابها وامتلاكها فقد كانت تلاقيه يومياً مع خادمتها في الميعاد المعين فيقضيان ساعات في ظل بساتين البرتقال المعطرة او فوق صخرة على شاطىء البحر تداعبها الامواج . وكانت تدعى سلمى فسماها سعادا ، وظن انه ملك بها السعادة واعتاض بها من ابنة عمه . فكان يدر الاموال عليها وعلى والدتها وخادمتها

ويهدي اليهن افخر الحرائر واثمن الاثاث وينظم لها ارق الاشعار الزجلية ، وقد كانت قريحته تجود بها بسخاء كما تجود يده بالدراهم

دام الحال على هذا المنوال اربعة اشهر ظن نفسه في اثنائها انه في فردوس النعيم واللذة . لكنه ما لبث ان تنبه ان طلبات صديقته تجاوزت الحد واصبحت ثقيلة عليه خصوصاً ان ماله أوشك ان ينفد . ثم لاحظ في ابتساماتها شيئاً من التكلف وفي لحظها المتقلب شيئاً من الرياء وفي شفتيها الغليظتين بعض علامات السآمة . وانها عمدت الى التبرج ففقدت كثيراً من نعومة بشرتها وسذاجتها الاولية وظهر الفرق بينها وبين سعاد حتى في ملامحها .

وفي عصر احد الايام وقد بكر في الولوج الى دارها وجد الباب الخارجي مفتوحاً قليلاً فدفعه وصعد الدرج دون ان يشعر به احد، حتى اذا صار في الطبقة العليا سمع قهقهة مؤلفة من صوت سلمى ورجل في الاربعين من عمره . فمشى على اطراف قدميه وشاهد من فتحة باب الغرفة منظراً اقشعر له بدنه . . . فصعد الدم الى رأسه واستل خنجراً كان في وسطه وهجم على الحبيبين فطعن الرجل في خاصرته طعنة نجلاء وجره عن الفراش الى الارض ، ثم اغمد الخنجر في صدر سلمى العاري مرة ومرتين وثلاثاً . وخرج لا يلوي على شيء . . .

هجر صيدا وجاء الى صفد حيث عين احد اقاربه الشهابيين مديراً على حداثة سنه . وهناك اطلق لنفسه العنان في معاشرة بنات الهوى . فكان كلما تعرف بواحدة شك بأمانتها فاستبدلها بغيرها من دون ان يتأثر كثيراً لخيانتها بل كان يعد ذلك التقلب امراً عادياً في النساء . وقد أدمن الخمرة فاستسلم للسكر والعربدة والدعارة واصبح من احط الساقطين. وفقد كل شعور الفضيلة والمروءة والشرف والضمير .

ولـكن لا الشهوات الحيوانية التي انغمس فيها ولا حمأة السكر التي تخبط فيها قويت على ان تنزع من قلبه المتصلب تلك العاطفة النبيلة التي سيطرت بها سعاد عليه لاول مرة . بل كان كلما زاد تمرغاً في ادناس الفجور اتسع الفرق بين حالته

الحاضرة المنحطة وحالة الطهارة والشرف التي كان عليها في بيت ابيه ، بين هذه النساء المتهتكات البائعات لاجسامهن بدرهم او كأس خمر وبين ذلك الوجه الملكي البشوش وتلك النظرات العفيفة المخلصة التي كانت سعاد تستقبله بها ، وعلى الاخص تلك الحشمة التي كانت تبدو على ملامحها وهندامها . . . وقد كانت فوق كل ذلك توده وتحترمه في آن واحد،بينما هذه الزواني يضحكن من حبه الاول وسذاجته الجبلية

ولما نفد شعوره وماله وتكررت اوامر والده اليه بالعود أو يحرمه حقوق البنوة والامارة ، وكان قد سئم سماجة تلك الحالة الدنسة كما يشمئز الانسان من قميص قذر لاصق بجسمه ، صمم على الرجوع الى بيت والديه . جاءه فوجده خالياً لان الامير حموداً التحق مع اولاده ورجاله بحملة اللبنانيين على دمشق . لكن والدته التي لم تقطع الامل برجوعه أبقت له حصانه « سعداً » ذا النجمة البيضاء على جبينه والنظرات الودودة . ومع ذلك فانه لم يتأثر من صهيل الفرح الذي قابله به هذا الحيوان الامين والحركات الكثيرة التي كان يظهر بها سروره بعودته،بل لبث في البيت منفرداً يمضي النهار امام نافذته المطلة على الوادي والبحر العظيم الممتد بعده . وقد لمحت له والدته مراراً الى اللحاق بابيه ، فلم يكن ليعير كلامها التفاتا وكان يشعر بانحطاط القوى وفقد الشجاعة والفروسية التي طالما فاخر بهما اقرانه . وقد شحب لونه وغارت عيناه واهتزت اعصابه فاصبح يغضب لادنى سبب و يبغض الناس وعشرتهم و يظهر كراهة قوية للنساء ، معتقداً انهن جبلة من المكر والفحشاء والسفالة . ولما فاتحته يوماً والدته بأمر الزواج ضحك ضحكة صفراوية وردد لها بوقاحة شعراً كان حفظه في المدرسة وخطر مراراً على ذهنه بعد عودته :

ان النساء شياطين خلقن لنا ‏ ‏ اعوذ بالله من شر الشياطين

فلم تتكدر والدته من هذه الجسارة الغريبة انما تأثرت من الحالة التي اصبح فيها ولدها .

وما لبث شهراً في البيت حتى مل عيشة الانفراد وضاقت عليه الدار على رحبها .

وكانت قواه قد عادت اليه وهمدت اعصابه وتذكر صديقه « سعد » فهم اليه وأسرجه واخذ يمتطيه غلساً كل يوم ويذهب به مع احد الخدم الصغار الى الصيد ولا يعود الا متأخراً في المساء . فانتهزت والدته فرصة هذا التحسن وافهمته ان الواجب عليه رد الزيارة الى امرأة عمه التي جاءت من اول يوم وصوله للسلام عليه وتهنئة والدته بعودته . وقد اشارت عليه تلميحاً ان يجتهد في رؤية ابنتها الصغرى « دلال » ونوهت بأدبها وجمالها واكدت له انها صورة مصغرة لسعاد . . .

فهاجت ذكرى سعاد في قلبه وما مضى على هذا الحديث يوماً حتى شعر ان صورتها ما زالت سليمة في قلبه وذهب الى بيت عمه بحجة رد الزيارة وفي الحقيقة انه قصد مشاهدة ذلك البيت الذي كان موضع احلامه الاولى . وكان اول ما وقع نظره عليه الصورة في النافذة ، تلك التي ناجاها كما يناجي الانسان ملاكا . ولشدة اضطرابه وخفقان قلبه خرج من الدار دون ان يزور امرأة عمه ومن غير ان يفقه سبباً لتعديه على اصول اللياقة . والحقيقة انه خاف ان يمحو من ذهنه تلك الرؤية اللطيفة بمشاهدة شخص آخر غيرها . فهام على وجهه . ولم يفق الا وهو على بعد بضع خطوات من دار ابيه . فخاف ان يدخله وهو على هذه الحال من الاضطراب واتخذ طريقاً صاعدة الى حرش الصنوبر الذي يكلل هامة القرية .

ولما بلغ اليه جلس تحت احدى اشجاره وسرح نظره في الافق الواسع المنبسط تحت بصره من قرى ووهاد متدحرجة الى الساحل المستدير ثم البحر العظيم المفترش ارض الافق ، وقد اقتربت منه الغزالة لتبيت فيه وارسلت اشعتها الذهبية تلثم رؤوس القمم والاشجار والصخور المنتصبة في طول تلك البقعة وعرضها لتوديعها . واذا بشعاع يدنو منه ويداعب جفنيه . فاطبقهما . واذا بتلك الصورة التي شاهدها في صحن دار عمه معلقة بحبال تلك الاشعة الذهبية النحيفة ، وشعر انها تحل في قلبه محل سعاد اختها بدون عناء للتشابه بين الاثنتين . فلم ير حسن في هذا الاحتلال مانعاً بل

لاحظ ان الصورة الصغيرة أبدع وارق من تلك ، فترك ملامحها تنطبع فوق ملامح الاولى حتى كادت تمحوها . . .

نهض حسن في صباح اليوم التالي وقد اعتقد ان الفوز بدلال بلسم لذيذ قريب المنال يشفي كل قروحه الماضية ويضمن له الراحة والسعادة بعد ذلك الاضطراب الطويل . فذهب الى والدته وكانت جالسة على مقعد من الابسطة العجمية مرتفع عن الارض قليلا و بيدها النارجيلة وامامها طبق القهوة على مائدة صغيرة . فسلم عليها ولثم يدها وجلس بالقرب منها ، فعجبت من ذلك لانه كان بعد رجوعه الى البيت كالغزال النافر . فسكبت له فنجانًا وناولته إياه وهي تنظر الى عينيه فاذا فيهما سؤال . فأومأت الى الوصيفة فخرجت و بادرته بالكلام باشة .

— ما وراءك يا حسن ؟

فلم يتلكأ حسن عن بسط حكاية الصورة دون ان يذكر امتناعه عن زيارة امرأة عمه . ولما ابدى رغبته في طلب دلال لاحظ في ملامح والدته شيئًا من الانقباض . فحار في امره وسألها

— وهلا ترغبين يا اماه في هذا الزواج

— بل اطلبه لك يابني من صميم قلبي ، وانا التي دفعتك اليه لما في هذه البنيّة من الخصال الحميدة . ولكني لست بطالبة يدها هذه المرة . كفاني ما احتملت من والدتها في طلب اختها . ورأيي ان تكلف هذه المهمة معلمك الاب انطون شراباتي ، ولا بد انه فائز بها لما له من الكلمة المسموعة لدى عمك الامير حيدر والامير بشير . وهو يحبك وقد سألني عنك مراراً في غيابك . تجده الآن في بيت الدين . وهو على اهبة السفر الى الحرب فاقصده حالاً .

***

فركب حسن في الحال الى بيت الدين وقد عادت اليه هواجسه وشعر ان اليأس ينشب اظفاره من جديد في صدره ، ولولا عظم ثقته بمودة الاب انطون وحسن

تدبيره ونفوذه في كل امر لادار عنان حصانه الى صيدا التي كانت تظهر له في آخر السهل بقعة خضراء بين البحر اللازوردي والجبل الاجرد . واذا بصورة سلمى عشيقته الاولى تظهر في مخيلته وقد انفتحت في صدرها العاري ثلاثة جروح كبيرة تفجرت منها الدماء ، وقد بلغت هذه الدماء احمراراً وهاجا لم تعد تحتمله عيناه . فاطبقهما . واذا بالمشهد يزداد فظاعة وكأن القتيلة قد انتصبت في الفراش وحملقت فيه شذراً . . . واذا بالرجل رفيقها مطروحا في ارض الغرفة وقد تصلبت ذراعاه وجحظت عيناه وفتح فاه . . . فعادت ذكرى الخيانة الى ذهن حسن وتدفقت النقمة الى صدره وحل الغضب فيه محل الخوف . ففتح عينيه وقد توارى المشهد و بانت تحت نظره قرية دير القمر بأبنيتها المتراصة وازاءها ، فوق الوادي ، سراي بيت الدين تنظر من فوق الاشجار الكثيفة بعبوس استمدته من هيبة صاحبها الامير بشير الشهابي الكبير . فشعر حسن ان هذا القصر العظيم قلعة وجنة وانه يحمل على الخوف اكثر من الارتياح . واذا بصورة استاذه الاب انطون تبدو امامه بشوشة ودودة حنونة اكثر من والده ، الذي قلما كان يراه لانهماكه في الحروب والسياسة . وتذكر عهد الصبا والبون الشاسع بين صفائه وطهارته والحالة المعكرة التي أمسى فيها الان . وتذكر الساعات الطويلة اللذيذة التي كان يمضيها بصحبة اخوته مع هذا الاب الوقور وكيف كانت تذهب سريعاً بدون ملل لما كان يتخلل الدروس من القصص التاريخية الحماسية عن المردة وامراء لبنان العظام وأبطاله وشهدائه

واذا بحصانه يصهل صهيل الفرح ويعدو في الميدان الواقع امام السراي جنوباً فاجابته الخيل المجتمعة هناك كمن يرحب بقدومه والتفت الجند والمكارية الواقفون فعرفوا الامير وتراكضوا لاستقباله . ولاحظ حسن أمام القصر حركة غير عادية فكان الخدم يحزمون الاثقال والعساكر تروح وتجيء بسرعة والفرسان يهيئون خيولهم . ولما اصبح في صحن الدار الخارجي تجلت امامه واجهة القصر بكل عظمتها وجمالها . فاخذ نظره يتنقل من القناطر المزدوجة المصطف بعضها فوق بعض والاعمدة

الرخامية التي تحملها والحجارة الملونة والنقوشات البديعة التي تزخرفها الى ذلك المدخل العظيم الذي يتوسطها ويعلوها بقامته . وقد تسابقت الوان حجارته الرخامية وعناقيد نقوشه العربية للتأثير على القادم وادخال الرهبة والعجب في قلبه . ففكر حسن ان تلك البوابة الانيقة ترحب بالزائر عن مكر ورياء لان ليس كل من يدخلها يخرج منها سالماً .

فاتجه الى السلم الصاعد الى الطبقة الاولى تاركا البركة العظيمة التي تتوسط الصحن الخارجي عن شماله . واذا بالاب انطون ينزل مسرعاً اليه واذا بذراعين مبسوطتين تستقبله . فارتمى حسن على عنق معلمه المحبوب ثم تخلص منه بلطف وقبض على يده وقبلها مراراً . فأحس الكاهن بحرارة شفتي الشاب وارتعاشهما فأخذه من يده وصعد به الدرج الرخامي وقاده الى غرفته الخاصة المطلة على البهو الداخلي وقد توسطته بركة صغيرة رخامية امر الاب انطون الخادم بفتح فوارتها فانفجر منها الماء وسقط رذاذاً لطيفا برنة عذبة على صحن البركة . فوقف حسن يتأملها ونسي انه بصحبة استاذه وظهرت في طرف شفتيه ابتسامة مرة . وكان الاب انطون يراقبه فرأى على وجه الشاب علامات اضطراب لم يكن قد انتبه اليها فأمسكه من يده وادخله الى غرفته وترك بابها مفتوحاً لاشتداد الحر وليسمح لتلميذه بالنظر الى البركة فينشرح صدراً برؤيتها . ثم اجلسه على المقعد المكسو بالسجاد وبش في وجهه هاتفا :

— أهلا وسهلا بالامير حسن بولدي العزيز

فلم يجب حسن من شدة التأثر . ففهم الاب ان في صدر الامير الشاب قلقا غير عادي . فتابع كلامه قائلا :

— لو تعلم يا بني ما يخالجني من السرور للقائك لتحققت عظم محبتي لك ولايقنت أنك لم تبرح من فكري كل مدة غيابك . وانك ما زلت اعز اولادي . . .

قال هذا ونظر اليه نظرة عتاب أبوي ففهم حسن ان استاذه عالم بكل شيء . . فأطرق خجلا امام طهارة هذا الكاهن ودناسة قلبه . ولما رفع نظره اليه رأى عيني

ذلك الـكاهن الجليل مبتلتين بالدموع . وسمعه يقول :

ـ يا حسن افتح لي قلبك فاني شاعر بمقدرة على مداواته

فتشجع حسن وقال له :

ـ جئتك يا ابي حائراً متألماً اطلب منك الاسعاف بالمشورة . انك تعلم ما حل بي لاجل سعاد (وقد لفظ اسمها بصوت خافت) وما ألقت في قلبي من الاضطراب وقد كان هادئاً صافياً كهذه البركة الصغيرة . ولـكن ما شعرت الا وقد انفجرت فيه عاطفة لم اكن ادري من امرها شيئاً كما انفجر الماء من قلب هذه البركة لما أمرت الخادم بفتحها . سررت بهذه العاطفة لاني شعرت بها لطيفة عذبة ولـكنها ألقت القلق في صدري . انظر الى التموجات التي يحدثها هذا الرذاذ في هذه البركة الصغيرة فهو مع نعومته قد القى الاضطراب في كل جوانبها . . . وأنت تعلم يا أبتِ البقية . زفت سعاد الى الامير فاعور وهمتُ انا على وجهي الى صيدا وهناك . . .

فقاطعه الاب انطون قائلا :

ـ مالنا وصيدا وغيرها وقد عدت الينا سالماً

ـ سالماً ؟ كلا بل مريضاً معطوباً

ـ والآن قد تماثلت الى الشفاء

ـ لقد خفت عني وطأة المرض وكادت جروحي تندمل . ولـكني اعتقد اني اضعت اجمل شطر من حياتي وخسرت أطهر جزء من قلبي .

ـ لقد اضعت براءتك الاولى ودنست قلبك . ولـكن تذكر يا بني انك مسيحي وانه لا يزال ميسوراً لك ان تكفر عن ماضيك وتغسل اوساخ نفسك وتعيش عيشة جديدة شريفة مرضية لله وللوطن .

ـ وهل تعود اليّ بعد ذلك راحتي ؟

ـ بدون شك

ـ وقلبي ؟

— ان حالة قلبك تابعة لتحسن صحتك الادبية . فافتحه لي لانقيه من أدرانه . أجثُ واعترف ...

فلم يتردد الامير حسن بل جثا على الارض وأسند رأسه بيده اليمنى وأخذ يسرد على الكاهن سيرته من ساعة هربه الى صيدا وما جرى له فيها وفي صفد الى حين عودته الى البيت . وكان كلما اعترف بذنب شعر ان ثقله قد خف عن قلبه . وكان الاب انطون يساعده بلطف ومهارة حتى انتهى من الاعتراف بخطاياه كلها . فارشده الكاهن بلهجة الاب الشفوق وكانت كلماته تنزل على قلبه الملتهب نزول الغيث على الجمر . ولما رأى ان التأثر بلغ منه حده وضع يده على رأس الشاب ومنحه البركة . فأحس حسن ان تلك اليد المباركة قد بددت من رأسه غيوماً متلبدة وألقت السكينة في صدره . فلثم يد معلمه بحرارة وشكر له معروفه وجلس متأدباً .

وكان الاب انطون قد اقفل باب الغرفة قبل البدء بالاعتراف فاذا به يقرع قرعاً خفيفاً فنهض وفتحه فرأى الخادم قد احضر طبق القهوة فتناوله منه ووضع الطبق على منضدة صغيرة مطعمة بالصدف تطعيما دقيقاً وصب الشراب اللذيذ من ابريق فضي جميل الصنع والنقش ووضع الفنجان الصيني في ظرف بديع مركب من خيوط فضية في غاية الاتقان . فشربا القهوة . ثم ملأ شبُقا وقدمه له فاعتذر حسن تأدباً . فالح الاب عليه وملأ لنفسه شبقا آخر مثله فتعطرت الغرفة برائحة القهوة والتبغ ثم التفت الاب انطون الى حسن مبتسما وقال له :

— لقد اعطيتك الدواء الروحي لنفسك واملي ان تشفى به باذن الله . بقي علي ان اصف دواء لقلبك . فلمَ لا تتزوج ؟

وكان حسن قد اخفى عن معلمه غرضه الاول من المجيء اليه فأراد ان يتم تمثيل ذلك وأجابه :

— وهل في الدنيا فتاة يمكنها ان تحل محل سعاد ؟

— نعم اقربها اليها شبهاً ودماً . وهي صورة مصغرة لها وفيها من الادب والظرف

ما يعوضك من شقيقتها . وقد بلغت الآن السن التي عرفت فيه سعاد

ـ اتعني دلالا ؟

ـ نعم هي بعينها . الم ترها بعد عودتك ؟

ـ رأيتها امس وانا داخل في بيت عمي لرد الزيارة لوالدتها . كانت واقفة في النافذة المطلة على صحن الدار فظننتها لاول وهلة سعاداً وناديتها بهذا الاسم . ثم اضطربت وخرجت من دون ان أزور امرأة عمي .

ـ اذن فلنذهب معاً غداً لزيارتها ونطلب لك منها يد دلال

فظهرت على شفتي حسن ابتسامة مرة . وقال بتهكم :

ـ على شريطة ان لا تكون مخطوبة سراً ! . .

ـ لا إخال ذلك وسنعرفه عن قريب . هيا بنا الى العشاء وغداً نركب الى اعبيه

٢

الياسمينة

وفي صباح اليوم التالي ركب القس انطون والامير حسن مع بعض الخدم قاصدين قرية اعبيه . فوصلا الى دير القمر بعد نصف ساعة وعرجا على دير الرهبان الحلبيين ، المشيد بقرب كنيسة « سيدة التله » شفيعة القرية ، لبعض اشغال كلف القس انطون الرئيس اياها . فأعاقهما الرهبان عن السفر واعدوا لهما مائدة أنيقة شرب فيها الحاضرون على نخب الامير بشير الذي وحد كلمة اللبنانيين وأعلى مكانتهم بين الملل المجاورة وجعل لهم حرمة عند وزير عكا والباب العالي وولاة سوريا . ثم شرب الرئيس نخب الامير حسن وهنأه بعوده سالماً الى الوطن وتمنى له ان يعود من حملة دمشق محققاً فيه الآمال . فشكر الامير للرئيس تهانئه وتمنياته ، وكانت الخمرة المعتقة قد شحذت قريحته ، فارتجل اشعاراً زجلية اطنب فيها كرم الرهبان وخدماتهم للوطن وتفانيهم في سبيله ، ونوه بشجاعة اللبنانيين في الحروب والمجد

الذي حازوه في هذا العهد وتخلص الى مديح استاذه القس انطون ومكانته في العلوم والسياسة والثناء على تقواه ووداعته وشكر له افضاله عليه، وختم بشكر الرئيس والرهبان لحفاوتهم به. وكان الحاضرون يرددون البيت الاخير من كل مقطع مصفقين مهللين فكانت الحماسة تزداد فيه فيجيد في النظم والانشاد حتى عجب الجميع من مواهب هذا الشاب الامير وحسن طويته مع ما سمعوه عن سوء سلوكه.

ولم يتركا الدير الا قبيل الظهر فوصلا الى جسر القاضي نحو العصر، وقد مالت الشمس الى الغروب وبدأت تنسحب من الوادي ويحل محلها ظل كثيف خيم على النهر وعلى جانبي الوادي المذكور حتى دير عين تراز الواقف على كتفه الايمن. وهذا الدير مقر بطريرك الروم الكاثوليك ورهبانهم.

اما الوادي فزاد انشراحا لتخلصه من الشمس اللافحة وتمتعه بالرطوبة المنعشة، فعلت اصوات مياهه وتدفقت طرباً بين صخور ملساء التي كانت تظهر كالاضراس استدارة وبياضاً، وكأن المياه الدائرة حولها ريقها العذب

وكان الدير ينظر عابساً من علوه ووحشته الى هذه المظاهر المبهجة، وقد صم آذانه عن ضجيج الفرح المتصاعد من صدر الوادي الثمل، والتحف باشجار الصنوبر القائمة وظلت حجارته مائلة الى الالوان الرمادية الضاربة الى السواد. فرأت الشمس الراحلة ان تداعبه وصوبت اليه انظارها بوقاحة فاحمرت نوافذه حياء ولم يعد في استطاعته الاحتفاظ برزانته وهيبته. فضحكت الطبيعة حوله من حالته هذه وامتدت الابتسامة الى الغابة المحيطة به ومنها الى الصليب القائم فوق قبته فأخذ يلمع في الفضاء.

لاحظ حسن وهو ابن الجهل كل هذا فقهقه كمن تناول الافيون وقال لرفيقه الكاهن:

ـ حقاً ان الشمس قليلة الحياء حتى تتحرش بالرهبان المنزوين في هذا الدير العالي بعيدين عن العالم وضوضائه ومهازله . . .

وقبل ان يفهم الكاهن مراده من هذا الكلام اعترض له احد المشايخ في طريقه ودعاه مع رفيقه الى المبيت في داره . فحاول الاب انطون الاعتذار اليه واذا صاحبة الدار قد خرجت من الحديقة وأخذت تلح في الدعوة.فقال لها الاب انطون :

— نحن مضطرون ان نكون الليلة في اعبيه

— ان بينكم و بينها ساعات يا أبت

— نسير في ضوء القمر

— ان القمر يتأخر ظهوره الليلة . فيضيء نوركم في دارنا عوضاً منه .

و بينما كان الكاهن على وشك استئناف السير اذ لاحظ في رواق الدار فتاة هيفاء متكئة على احد اعمدته ، و بقربها فتاة اخرى تفوقها جمالا مستندة على كتفها ، وهما تنظران الى الامير حسن وتتهامسان . فعرف الاب ان الثانية منها دلال بعينها تلك التي جاء في طلب يدها للامير حسن . فسأل الشيخة :

— هل الاميرة دلال في ضيافتكم ؟

— نعم . جاءت لزيارة ابنتي دعد ومشاركتها في افراحها القريبة

— مبروك ربنا يتم لكم بالخير

— لا نقبل لك تهنئة في الطريق . تمضيان الليلة عندنا فيكمل فرحنا

قالت هذا وهي تنظر شزراً الى حسن لان عينيه كانتا متجهتين نحو الرواق . فلاحظ القس انطون ان الشيخة مستاءة من جسارته . فقال لها :

— الا تعرفين رفيقي ؟ الامير حسن حمود . . .

— الامير حسن حمود ؟ ابن عم دلال ؟ صار لنا الشرف

قالت هذا وانحنت قليلا امام الامير الشاب وقد تغير شكل نظرتها ثم هتفت :

— لقد كمل الآن سرورنا بتشريف اميرين ووالدهما في ليلة واحدة .

والتفتت الى الرواق وصاحت :

— يا دلال . هذا الامير حسن ابن عمك !

ولما صعد حسن الدرج الموصل الى الرواق ووضعت دلال يدها في يده شعرت كأن ناراً لمستها . فاضطربت وجذبت يدها بخفة وطوقت بذراعها عنق رفيقتها متكئة عليها . ولما جلس الجميع على الابسطة في الرواق أحست كأن عيني حسن جمرتان مصوبتان الى وجهها ولم تفقه لذلك سبباً . ولم تحضر العشاء تلك الليلة بل اختلت مع رفيقتها في غرفتها مدعية قلة شهوة الطعام .

وبعد العشاء والنارجيلة انزوى الاب انطون في غرفته ليصلي وذهب حسن ايضاً الى الغرفة المعدة له وقضى ساعات طويلة من الليل يتقلب على فراشه دون ان يغمض له جفن . وكانت الليلة حارة فالتحف بعباءته المقصبة وخرج الى الرواق المطل على الوادي وقد اشتد ضجيج النهر في سكون الليل وملأ فضاء تلك البقعة . وبرز القمر كبيراً من وراء الجبل الشرقي والقى اشعته الفضية على الوادي ، فلمعت صخوره الملساء وتلألأ زبد مياهه واستنارت رؤوس الاشجار وبرز الدير باشاً فوق الغابة بحلة بيضاء زاهية وتفضضت نوافذه وسطع صليبه . فشعر حسن ان صورة دلال المحبوبة قد احتلت بهدوء ولطف قلبه المضطرب كما احتل هذا القمر الوادي الثائر ، وان جوارحه قد قابلت هذا الاحتلال بانشراح فتحولت عواطفه وافكاره الى هذه العيون الملكية التي كانت مصوبة اليه ساعة وصوله الى دار الشيخ ، ولما اخذ بيده يدها الصغيرة أدرك ان تلك الانامل الناعمة كانت ترتعش وان نظرها لم يكن يطيق التحديق اليه في اثناء جلوسهم في الرواق . ومع ان لحاظها لم تتركه ثانية فقد كانت تخفضها حياء كلما وجه نظره اليها . فهل يمكن ان لا تمسها شرارة من العاطفة الملتهبة التي يشعر بها نحوها ؟ لابد انها تميل اليه ويجب عليه ان يتحقق ذلك قبل سفره الى والدتها ، حتى اذا وثق من ميلها لاتعود قوة في الارض تستطيع ان تنزعها منه هذه المرة .

فصمم على استطلاع رأيها . ولكن انى له ان ينفرد بها وهو عازم على الركوب غلساً الى اعبيه ؟ فأخذت تجول في فكره مشاريع كثيرة يجد في كل منها

صعوبة لا تغلب . وانبلج الفجر ولم يوطن النفس على شيء . فعاد الى غرفته ولبس ثيابه وجلس على مقعد بقرب النافذة يرتشف نسيم الصبح الذي كان يمر في الوادي رطباً هائماً . وبعد ساعة مضاها غارقاً في هواجسه لاحظ في الحديقة شبح فتاة يتنقل بين الاشجار . وما لبث ان عرف دلالا . وكان الارق قد لازمها طول الليل فنزلت مبكرة الى الجنينة دون ان توقظ رفيقتها . فانحدر وراءها وكان يخفت بوقع قدميه على السلم الرخامي المؤدي الى الحديقة لئلا يشعر به أحد . وبعد ان دار حول بعض اشجار البرتقال شاهد دلالا بقرب ياسمينة وقد زينت رأسها بزهيراتها وكانت مشتغلة بضم عقد منها . فتركها حتى انتهت منه ووضعته في عنقها متدلياً الى صدرها بين ضفيرتيها . وكانت مرتدية صدرة محفورة الاكمام محلاة بخيوط القصب الفضي رسوماً جميلة تلتف حول بعضها فتتعانق ثم تتباعد وتصعد صفين متوازيين يلتقيان تحت عنق الفتاة ثم تنحدر متوازية متعرجة فتتصافح فوق خصرها . وتحت الصدرة المفتوحة من الامام قميص من حرير ابيض شفاف يظهر من خلال طياته رداؤها المخملي الارجواني . ولما احست بقدوم حسن رفعت عينيها فاذا هو امامها يلقي عليها سلام الصباح . فردت عليه التحية باشة . فقال لها وهو ينقل نظره بين رأسها ، حيث كانت باقة الياسمين تزيد شعرها الحالك لمعانا ، ونحرها المرمري ، حيث عقد الياسمين بزهوره الذكية :

— اني مسافر يادلال بعد قليل الى اعبيه فهل من خدمة لامرأة عمي ؟

شكراً لك . ان زرت والدتي هذه المرة ، وهي تنتظر دائماً ان ترد لها الزيارة ، فقل لها اني في خير كما تراني

— وهل كنت منزعجة الليلة الماضية فلم تشاركينا في العشاء ؟

— لم يكن لي شهوة للاكل



— وما هو سبب تبكيرك الى هذه الجنينة ؟

—اني احب نسيم الصبح في هذا الوادي ، خصوصاً اذا هب على هذه الياسمينة ، فيتعطر منها قبل غيره ويترطب بنداها قبل ان تجففه الشمس

— وهل تغارين على هذا الزهر النحيف من نسيم الصباح وشعاع الشمس كما انا أغار عليك من العيون ؟

فتوردت وجنتا دلال حياء لهذه المفاجأة واطرقت هنيهة لا تجد جواباً . ثم رفعت رأسها بأنفة وقالت لحسن

— وما الداعي الى هذا الكلام وانا الآن وحدي معك ؟

— لا داعي له سوى انكِ ابنة عمي واخت سعاد التي احببتها من صميم جوارحي وفقدتُ شطراً من قلبي لاجلها . وقد ضاعت سعاد مني وكنت اعتقد ان عمري ضاع معها لو لم أرك ذلك اليوم في النافذة وقد ابتسمت لي وخاطبتني بلطف .

وكانت دلال تسمع كلامه بارتياح ولا تجسر ان تنظر اليه أو توقفه . وقد شعرت برنة الاخلاص والجد في كلامه وبنبرة التأثر في صوته . فتأثر قلبها الرقيق وأشفق على حالته . وكانت عالمة بحبه لشقيقتها حباً جماً خالصاً وكانت تلوم في قلبها والديها لانهما ظلما شقيقتها وابن عمها معاً . ولكنها ما لبثت ان ملكت عواطفها وحصرت نظرها في سلسلة ذهبية معلقة في حزام حسن يتدلى منها قلب صغير من ذهب مرصع في غاية الذوق والمهارة . واذا شعاع من الشمس المشرقة يخترق اغصان الشجرة الواقفان في ظلها ويحط على ذلك القلب الصغير فأبرقت حجارته . فارادت دلال ان تغير مجرى الحديث وتخفي تأثرها من كلامه فصاحت :

— ما اجمل هذا القلب الصغير !

فما كان من حسن الا انه انتزعه من السلسلة وقدّمه الى الفتاة . فتمنعت قائلة :

— ما هذا ! . .

— فأجابها بجد وتأن :

— هذا قلبي أضعه بين يديك فحافظي عليه . . .

فنظرت اليه ، فرأت في عينيه توسلا وحباً خالصاً . فأضاعت رزانتها ومن غير ان تقدر عواقب ما هي قادمة عليه ، مدت يدها وتناولت القلب المرصع . ثم فتحت صدرتها من جهة الشمال وعلقت ذلك القلب على قميصها فوق قلبها . وأطبقت الصدرة ووضعت يدها حيث ذلك القلب ورمقت حسن بنظرة معناها :

« هل انت مسرور مني الان ؟ ساحافظ على القلبين معاً »

فكاد حسن يجن من فرحه وفكر في ان يضم الى صدره ذينك القلبين . فلم يجسر احتراماً وتأدباً ، مع ان امامه فتاة ضعيفة ، لكنها ملاك طاهر خاف ان يخدش عواطفها ويحملها على سوء الظن فيه . فتناول احدى ضفيرتيها وقبل طرفها باحترام يقرب من العبادة . ومع ان بنات الهوى كن في صيدا وصفد طوع بنانه فقد وجد في لثم طرف ضفيرة هذه الفتاة العفيفة لذة يبيع في سبيلها حياته رخيصة .

وبينما هو في ذلك اذ اشتبكت ضفيرة شعرها بعقد ثمين من الكهرمان كان معلقاً في عنقها فانتثر وتناثرت حباته على الارض . فاسرع حسن الى التقاطها وجعل ينظمها واحدة واحدة كما كانت دلال تضم زهور الياسمين . كان يقوم بذلك ببطء خوفاً من ان ينتهي منه ولا تبقى له حجة للوقوف امامها ، وكانت دلال تنظر اليه ضاحكة من قلة مهارته وارتعاش أنامله . فقالت له هازلة :

— لقد قيل لي انك شجاع فهل هكذا ترتعش يدك اذا قبضت على السيف ؟

— اني ذاهب غداً الى الحرب اكراماً لعيونك . وستعرفين بعد ان اخوض غبارها اني لم ارتعش في حياتي الا امام دلال . فان حافظتِ على هذا القلب الصغير الذهبي سأنازل الجحافل بقلب من حديد !

وكان قد انتهى من نظم العقد الكهرماني فأعاده اليها مرغماً . فخطر لها ان تدعه

في يده عوضاً من القلب المرصع لكنها خافت من ان تسألها والدتها عنه . فرفعت من عنقها عقد الياسمين وقدمته له قائلة :

— حافظ على هذا العقد كما ساحافظ أنا على هذا القلب

— سأبقى على عهدك حتى الموت !

— ولكن عليك يا حسن ان ترضي والدتي لانها مستاءة منك

— انا قاصد اليها اليوم مع القس انطون لاعتذر اليها واسأل رضاها فهل تسمحين لي ان اطلبك منها ؟

فنظرت اليه مبتسمة وهزت رأسها علامة القبول

— وهل تعاهدينني ان هي رفضت أن تثبتي على عهدي ؟

— اذا رفضت فعليك بابي . وان تمنع فعليك بالامير بشير . ولكن مفتاح الامر في يد والدتي فاجتهد في اكتساب عطفها

— فاراد حسن ان يشكر لها هذه المشورة واذا بوقع اقدام يقترب منهما . وظهرت صاحبة الدار من وراء الاشجار . فقالت وقد أخفت ما يخامرها :

— صباح الفل يا حضرة الاميرين . يظهر ان عطر هذه الياسمينة قد اجتذبكما باكراً . . .

وكانت دلال لما أحست بقدومها عادت الى الياسمينة تقطف منها الزهور . فأجابتها على الفور :

— اني اجمع منها باقتين لوالدتي ولامرأة عمي

وكانت الشيخة ترغب كثيراً في التقريظ وتنميق الكلام . فقالت :

— ستزداد رائحة هاتين الباقتين ذكاء لان يد الاميرة دلال جمعتهما وستقدمهما يد الامير حسن . . .

٣

في غابة الصنوبر

M.N

وبعد ساعة كان القس انطون وحسن صاعدين في غابة كثيفة من الصنوبر البري تغطي سفح الجبل الفاصل بين هذه الجهات والبحر. وكان عبير الاشجار يمتزج بنسيم الصبح البليل الذي جاء غلساً يتمشى بين مظلاتها وينعش صدور المارين في ظلالها. وكان كلما ارتفعا يخفت هدير الماء الصاعد من الوادي ويزداد لمعان صخوره المستديرة وينكشف لون الغابات في سفحي الجبلين القائمين عن يمينه وشماله.

وما توسط الراكبان الجبل حتى هاجمت الرياح الغابة فدخلتها صاخبة معربدة واخذت تمرح فيها مطلقة لنفسها الأعنة. فتنحى النسيم الرقيق، الذي يحب السكون، امام جحافلها وفقدت الغابة رزانتها وشاركت الرياح في مجونها. فأخذت الاشجار تهز رؤوسها طرباً وتلوي قاماتها اللينة ذات اليمين وذات الشمال مترنحة كالسكارى راقصة على صوت الرياح التي كانت تصفر صفير الجن حتى لم يعد احد الراكبين يسمع حديث الآخر. فاقترب حسن من الكاهن وحث الخيل حتى ابتعدا عن الخدم واخذ يقص على استاذه مقابلته لدلال في الصباح وكيف انه فاتحها بامر الخطبة فوجد فيها ميلاً اليه. ولم يذكر للكاهن شيئاً عن القلب المرصع وعن باقة الياسمين المخبوءة في عبه والتي كان شذاها يفوح فيسكره، لكنه اطلعه على الخطة التي رسمتها له دلال. فسر الاب بذلك ورأى في ميل دلال الى حسن ضماناً لتحسن حالته النفسية فيصبح رجلا نافعاً للوطن، ووافقه على هذه الخطة ولاسيما على ما يتعلق منها بذهابه الى دمشق. وافهمه ان الجميع كانوا متعجبين من ابطائه في الانضمام الى الحملة اللبنانية وانه كان يعتذر لهم عنه بانحراف صحته. وقد تعافى الآن فاصبح الواجب عليه كأمير وكلبناني ان يسرع لاثبات وطنيته وفروسيته.

اما حسن فكان يقول في نفسه: اني لم استعد شجاعتي الا من كلمة دلال.

وما انا بخائض هذه الحرب الا اكراماً « لسواد عيونها . » لكنه أراد اخفاء حقيقة ما في قلبه فسأل القس انطون :

— وما الداعي الى هذه الحملة وما شأننا فيها ؟

وكان القس انطون من اقرب مستشاري الامير بشير ومطلعاً على دخائل سياسته ومراميه الوطنية فأجابه :

— أنت تعلم يا بني ان اميرنا الكبير لما جمع السلطة في يده بعد وفاة اخيه حسن حاكم جبيل ولبنان الشمالي ، صفا له الجو واصبح في امكانه ان يوحد كلمة اللبنانيين على اختلاف مذاهبهم واحزابهم ويجعل منهم جيشاً منظماً واداة حربية قوية تجبر ولاة عكا وسوريا على احترامهم والتهافت على خطب ودهم

— ولكن الامر لم يتم له الا بعد ان قتل جرجس باز واخاه وسمل عيون ساداتهما اولاد الامير يوسف وجردهم من مقاطعتهم واملاكهم وحبسهم في قرية درعون حيث جعلهم كالرهبان لا يتزوجون ولا يقابلون احداً . . .

— فعل ذلك في سبيل الوطن . لان الامة التي لها رأسان تنقسم على نفسها فتخرب ولو لم يفتك محمد علي باشا بالمماليك لما بلغت مصر العز التي فيه الآن . وقد تجبر جرجس باز واخوه وشجعا مشايخ آل الخازن على العصيان واخذا يتآمران مع حاشية والي عكا لاعادة تدخله في شؤون لبنان واقلاق راحته وتمزيقه بعد جمع شمله . وأنت تعلم مؤامرتهما مع حاييم اليهودي كاتب عبدالله باشا والي عكا وسفر جرجس باز الى هذه المدينة وماجرى له فيها من الحفاوة وما دسه هناك من الدسائس . وكان الامير بشير قد حذر منه ورصد عليه العيون فعلم كل ما يضمر له وتحقق ان لا راحة للبلاد الا بالتخلص منه ومن اخيه فقضى عليهما ونزع السلطة من موكليهما .

— اذاً « فالغاية تبرر الواسطة وعمل الشر جائز اذا كان من ورائه خير » والقتل محلل في شريعتنا اذا كانت الغاية حميدة . . .

— انا لا اجوّز القتل في سبيل غاية حميدة انما اعذر الامير على ما فعل . ولا

تنسَ ان الحاكم اذا عاقب لا يعدّ قاتلاً . وقد كان موقف الامير حرجاً للغاية ومصلحة الوطن في خطر عظيم . فلو استمر الاخوان على الاستعانة بالاجنبي لتنفيذ اغراضهما لعاد لبنان الى شقائه الاول فاختل الامن وسادت الفوضى ومزقت الانقسامات احشاءه فخربت بلدانه وراقت دماء ابنائه . وهذا لا يرضاه وطني مثلك .

ومع ذلك ما لنا وما للماضي . انظر كيف ان الامير لما انطلقت يده في حكم لبنان بلغ به في وقت قصير اوج الرفاهية والطمأنينة والقوة .

اسمع هذه الحكاية لتعرف الحد الذي وصل اليه الامن في لبنان في عهد هذا الحاكم الحازم .

كان احد ضباط الاكراد من حرس الامير مارا في ليلة حالكة الظلام على نبع ماء فتحول اليه واذا بفتاة تستقي منه فشرب هو وحصانه وما ابتعد قليلاً حتى داخله الشك في تلك الفتاة . فعاد اليها وسألها : كيف تجسرين يا بنية ان تأتي وحدك في هذه الساعة الى هذا المكان البعيد عن القرية . الا تخافين من مفاجىء او لص ؟ فأجابته : لست وحدي فالامير بشير معي .

فتركها الضابط . ولما مثل امام الامير في اليوم التالي اراد ان يتزلف اليه فاخبره بحكاية الفتاة وكيف انها كانت واثقة في ذلك المكان القفر من ان هيبة الامير تحميها .

فلما سمع الامير ذلك نظر غاضباً الى الضابط وصاح به :

وكيف تجاسرت يا شقي ان تكلم فتاة وحدها في هذا المكان . وماذا كنت تنويه في عودتك اليها ؟ والله لو زدت على ما قلته لها كلمة واحدة لأطرت رأسك بهذا السيف !

ثم امر بسجن الضابط سنتين وطرده من الخدمة .

هذه يا بني الحالة التي اصبح فيها لبنان في الداخل فضلاً عن المركز المحترم الذي له في الخارج .

الا تفضل هذا على التطاحن وخراب وطننا العزيز ؟

فرأى حسن ان القس انطون مع كل رزانته ووداعته لم يتمكن من ضبط نفسه عند ذكر الانقسام وانه يسمي لبنان وطنه مع انه حلبي الاصل . فقال له بذوق لا يعرفه غير الامراء :

— اننا نشكر لك يا حضرة الاب غيرتك على لبنان وعدّك اياه وطنك مع حنينك الى الشهباء مسقط رأسك . وهذا ما لاحظته في اغلب الحلبيين المقيمين بيننا

— ان لبنان وطن كل مسيحي في سوريا والمعقل الوحيد الذي يلجأون اليه في شدائدهم ، ففيه القوة المسيحية الوحيدة المستقلة عن الولايات المجاورة . فضلا عن ان كل من عرف لبنان افتتن بجماله وكرم اخلاق اهله .

ولبنان وطن كل ماروني لانه مركز طائفتهم ومنبت اسرهم . فاصل الحلبيين الموارنة ، جلهم ان لم تقل كلهم ، من شمال لبنان هاجروا منه الى حلب منذ مائتي سنة واكثر طلباً للرزق ، والى الآن يعرف بيننا الحصروني والبشراني والعاقوري والعبديني .

— وللحلبيين افضال كثيرة على لبنان وخدمات جليلة ادبية ودينية ووطنية نقدرها لهم حق قدرها ، وربما كانوا اخلص وطنية منا

— ذلك لانهم رأوا يا بني الفرق الشاسع بين حالة المسيحي في هذا الجبل العزيز وحالته الذليلة في بقية سوريا . وهذا ما يجعلني اتأثر من الانقسامات التي تجعل جبابرته العوبة في ايدي الاجنبي فيبتز اموالهم ويذلهم ، وهذا ما يحملني على التعلق بالامير بشير الذي جعل للبنان مقاماً رفيعاً وسيبلغ به ان شاء الله ذروة المجد بالرغم من اهله

— ولكن تحرشه بالدمشقيين جيراننا وبذل الاموال والرجال ارضاء لولاة عكا ليوطدوا مركزه في الحكم يعدّ أنانية . فلا يجوز له ان يفضل مصلحته الخاصة على المصلحة العامة .

— اراني مضطراً الى ان ابوح لك بسر لا يعرفه سوى القليلين من الاعيان فتقتنع ان مصلحة لبنان في تأييد سليمان باشا . فان نجحنا في تسليمه ولاية دمشق عظم شأننا في الاستانة وفي كل سوريا واصبحنا حلفاء لسليمان باشا بدلاً من ان نكون تابعين له . وانا لا اتردد في ان اطلعك على سر هذه الحملة لكي تنضم اليها بكل جوارحك وتخدم فيها بشجاعة ونجابة كما اعهد فيك

انت تعلم كيف ظهر العرب الوهابيون في حوران كالجراد الزاحف فاخذوا يأكلون الاخضر واليابس ويفرضون الغرامات على البلاد . ولو لم يهب ولاة الامور الى الوقوف في وجوههم لزحفوا الى لبنان وجعلوا نصيبه الخراب مثل حوران . لكن يوسف باشا والي دمشق خرج حالا بجيشه الى صحراء المزاريب ليصدهم وأرسل يستنجد عليهم سليمان باشا والي عكا . فأسرع هذا الى نجدته وفي قلبه نيات غير النجدة حتى اذا وصل الى طبريا كتب الى الامير بشير يستنهض همته ويطلب اليه ان يلاقيه برجال الجبل . فانتهز الامير بشير هذه الفرصة لاظهار ما وصلت اليه قوة جيشه والتفاف الاعيان حوله فجمع خمسة عشر الف رجل وقام بهم من دير القمر الى جزين ومنها الى مرجعيون . فلاقته عساكر سليمان باشا الى خان المنى بالطبول والزمور واطلاق البارود ، ما جعل قلوبنا تهتز فرحاً لهذا الاستقبال الذي لم يسبق حدوثه لحاكم مسيحي مع جيشه . وقد كنت في معية الامير ، فلما بلغنا طبريا وجدنا اربعمائة خيمة منصوبة لنا في سهلها . ولما اقتربنا من خيمة الوزير ترجلنا ومشى الامير بثلاثة من رجاله وكنت منهم للسلام على الوزير . ولما دخل الخيمة اذا بالوزير ينهض من صدرها ويتقدم للقاء الامير مع ان العرف يقضي ان يظل جالساً في محله . ولما انحنى الامير لثم أتكه اي طرف ثوبه انهضه الوزير وقبّله في جبهته واخذه بيده وامره ان يجلس عن يمينه . وهذا فخر لم ينله حاكم في لبنان بعد الامير فخر الدين المعني .

وكنت واقفاً على باب الخيمة فلما قدموا القهوة والشبق لم يرض الامير ان يتناول شيئاً قبل ان يسمح لي الوزير بتقبيل أتكه . فأومأ الي الوزير بالدنومنه ففعلت. فقال له الامير :

– هذا يا سعادة الوزير من ائمة النصارى ومن اولياء الله . هجر وطنه حلب واهل بيته واعزاءه زاهداً في الدنيا وجاء لبنان ليترهب في ديورته . ولما كان ذا صلاح وعلم ورأي سديد قربناه الينا وجعلناه من ارباب مشورتنا . فهؤلاء الرهبان متجردون عن الدنيا بعيدون عن اهوائها ومخلصون لله وللدولة وممثليها . وقدأوصانا بهم النبي عليه الصلاة والسلام

وكان الوزير في اثناء الحديث يبش في وجهي ويحني رأسه دلالة التأمين على كلام الامير حتى اذا انتهى قال :

– ان لاولياء الله منزلة رفيعة عندنا ولك يا امام النصارى معزةواحترام.

فقبلت اتكه شاكراً وخرجت .

– أو لم تسمع يا أبت مادار من الحديث بين الوزير والامير ؟

– ليس في عرف اللياقة ان يفاتح الوزير ضيفه بامور السياسة في اول مقابلة . لكنه في اليوم التالي جاء لرد الزيارة للامير . وكان الامراء والمشايخ مصطفين امام الخيمة ووراءهم الجيش اللبناني باعلامه . فأعجب الوزير بهيئتهم ونظامهم وكان ينظر الى الجنود باسماً ويقول لهم « عفارم لبنان ، عفارم أسود الجبل » وكان رصاص البنادق وهتاف الجنود يشق كبد السماء والاعلام اللبنانية البيضاء تخفق تيهاً في فضاء تلك البقعة الواسعة

وبعد ان جلس الوزير واجلس الامير بجانبه اظهر له الارتياح من تلبيته اوامره بهذه السرعة وجمعه هذا الجيش الجرار . ثم قال له :

— انت من اخصاء رجال الدولة واكثرهم حكمة واخلاصاً . وقد فوضت اليك امر هذه الحملة ووضعت جيشي تحت قيادتك لترد العربان عن البلاد وتؤمن العباد شرهم

فأسرع الامير ولثم اتكه وشكره قائلاً :

— انا وجيشي واللبنانيون جميعاً مستعذون للتفاني في خدمة الدولة وخدمتكم

فقال له الوزير :

ونحن ، لحسن درايتك وصدق خدمتك وطاعتك وقيامك بكل عمل جليل ، قد اقمناك والياً على لبنان ما دمت حياً

قال هذا واشار الى التشريفاتي فتقدم بخلعة فاخرة من فرو السمور الثمين ، فتناولها الوزير من يده والبسها الامير دلالة لرضاه واثباتاً للنعمة الجديدة التي منحه اياها

ولما علم الامراء والمشايخ والجنود بما تم هزوا الارض من هتافهم ودوي بنادقهم ودعوا للوزير بطول العمر للنعمة المزدوجة التي منحها للامير والبلاد وهي تولية الامير بشير قيادة الجيشين والحكم حياته كلها . فسر الامير لهذه المظاهرة لانها بينت الوزير مكانته في لبنان واثبتت له ان الجميع ملتفون حوله ومتعلقون بمحبته

— وما علاقة كل هذا مع حملة دمشق الحالية وكيف انقلب الامير بشير على يوسف باشا واليها مع انه هب في بدء الامر لمساعدته ؟

— هذا ما ارغب في ايضاحه لك . ولكن عليك ان تكتمه لانه سر لا يعرفه سوى الاخصاء وبعض الاعيان . بعد ثلاثة ايام من تولي الامير بشير قيادة الجيشين وردت البشائر بانسحاب الوهابيين . ففكر سليمان باشا في ان ينتهز فرصة اجتماع الجيشين وحسن استعداد الامير لخدمته لتوسيع سلطته . فقد كان سعى سراً في الاستانة وفاز من الباب العالي بضم ولاية دمشق الى ولايته وصار يتحين الفرص لاشهار الفرمان السلطاني لكنه كان خائفاً من ان لا يسلمه يوسف باشا الولاية طوعاً وهو لا يقوى على

اخذها منه قسراً لكثرة ماله ورجاله . فلما أمن جانب الوهابيين استدعى الامير بشير واطلعه على الامر السلطاني واستشاره في ذلك قائلا :

– ان كنت قادراً على ان تساعدني في ذلك فلنذهب الى دمشق ونغتنم فرصة اجتماع جيشينا وغياب يوسف باشا عنها فنستولي عليها بسهولة . والا فانا ارد الفرمان الى الدولة ويبقى امره سراً بيني وبينك

فرأى الامير بشير ان في تقوية سليمان باشا ومحالفته مصلحة عظيمة له وللبنان فأجابه على الفور :

– انا ورجالي في خدمتك نقاتل حتى نقتل أو نبلغك ما تريد

فقال له الوزير :

حياك الله من خادم نصوح . وانا افوض اليك امر هذه المهمة وقيادة الجيش العامة فافعل ما تراه موافقاً

ووعد ان يكافئه بتوسيع سلطته واطلاق يده في الحكم

وفي الحال احضر سليمان باشا قواد جيشه واعلمهم بالامر وامرهم بالتأهب . وارسل اناساً يقطعون الطرق لئلا ينم الخبر الى يوسف باشا .

اما الامير فرجع في الغد بجيشه الى مرجعيون وارسل فجدّد الاوامر على البلاد ان يحضر اليه كل من تخلف عن الجردة الاولى . وكتب الى ابناء عمه ان يتوجهوا الى المقاطعات ويرسلوا اليه جميع الباقين من الرجال . وقد جند والدك وعمك الفاً ومائتي رجل تحت راية واحدة

وكان الشيخ بشير جنبلاط قد تأخر لبعض اسباب عائلية فكتب اليه ان يحضر حالا برجاله.وثق بأن الدمشقيين باتوا في وجل لانهم يعلمون ان رجالنا بالف فكيف وقد تجاوز جيشنا خمسة وعشرين الفاً . وانا اعتقد ان مستقبل لبنان والنصرانية في سوريا معلّق على هذه الحملة . فان فزنا اصبحنا حلفاء سليمان باشا ويده اليمنى فيطلق لنا الحرية في شؤوننا الداخلية ويخفف من غلوائه في طلب الاموال لان تعزيز لبنان

يصبح تعزيزاً لمركزه . وان شاء الله يابني سيكون لك حصة كبيرة في انتصار هذه الحملة لانك مقدام وذكي الفؤاد وساجتهد في ان احمل الامير على تكليفك مهمة تليق بك وتفتح المجال لاظهار شجاعتك وفطنتك فترتفع في عينيه واعين الامراء والشعب عامة وعيني دلال خاصة . لان بناتنا يهوين الرجل الباسل اكثر من الشاب « العيّوق » الخامل .

قال هذا ونظر الى حسن باسماً خوفاً من ان يحمل كلامه على غير مقصده فدبّت النخوة في صدر حسن وأجابه بجدّ :

— انا ذاهب الى الحرب وسترى حضرتك ودلال اني شاب عيّوق ورجل باسل

— هذا ما اعتقده فيك وانت حفيد الامير حيدر وقد كنت في صغرك تحب قصص عنترة وابي زيد المهلهل اكثر من كتاب الاجرومية وديوان المطران . . .

وكان قد اجتازا قمة الجبل فظهر لهما فجأة البحر الازرق الواسع والوانه المنعكسة على قرى لبنان المطلة عليه . فقال له الاب انطون :

— هوذا البحر الجميل صديق لبنان وميدان فخر اجدادهم الفينيقيين فقد جابوه ورحلوا منه الى اقاصي الارض حتى اميركا ، في الوقت الذي لم تكن الشعوب الاخرى تجسر على ركوب زورق في بحورهم . انظر الى بيروت البيضاء الداخلة في البحر تراها كانها سرب من الحمام نزل في الماء .

لكن عيني حسن كانتا قد تجاوزتا بيروت الى معلقة الدامور التي كانت تظهر عن ذلك البعد مرصعة في هلال الخليج بين بيروت وصيدا . ومن هناك انتقل نظره الى مزرعة الناعمة القريبة منها حيث استقر حزيناً مفتشاً عن دار سعاد . فخيل اليه انه يرى هذه المزرعة على صغرها و بعدها بيتاً بيتاً ورعاً كانت مخيلته كالمنظار قد جسّمتها امامه . فلاحظ الاب انطون ذلك ورأى الانقباض البادي على ملامحه ففهم انه مع ميله الى دلال لم ينسَ حبيبته الاولى . فقال له مازحاً :

بمَ تحدق عن هذا البعد ؟

فاجابه حسن ببساطة

– بمزرعة الناعمة

– حيث سعاد اخت دلال ؟

فعادت الابتسامة الى شفتي حسن . وكأن اسم دلال سحر . فما لفظه الاب انطون حتى برزت امامهما سطوح قرية عبيه البيضاء . وقد علاها قصر الامير حيدر عمه وظهر رواقه واعمدته الجميلة . ثم صحن الدار وفي وسطه تلك النافذة وعريشتها. فشعر حسن بقشعريرة خفيفة لحلول الوقت الذي فيه يصدر الحكم له او عليه فيكون سعيداً حياته كلها بصحبة دلال او يعود شقياً تعساً لا يفقه للحياة معنى او غاية . . .

٤

الطلب

ذهب القس انطون والامير حسن عند وصولهما الى اعبيه الى دار الامير حمود تواً فهرول الخدم لاستقبالها واخذوا الخيول الى الاسطبل الملاصق الدار واسرعوا فأعلموا والدة الامير حسن فخرجت الى المصطبة التي امام قاعة الاستقبال المخصصة للحريم وهتفت « اهلا وسهلا بابينا وعزيزنا نوّرت الدار بتشريفك » . قالت هذا وتقدمت الى الدرجتين اللتين فوق المصطبة وانكبّت على يد القس انطون وقبلتها واعطت يدها للامير حسن فقبلها وقبلته في خده . ثم تقدمتهما الى القاعة واجلستهما على الابسطة المرتفعة قليلاً عن الارض . واذا بخادمة صغيرة متأنقة في هندامها دخلت بقمقم ماء الزهر وارادت ان تنثر منه على الكاهن ورفيقه فصاح فيها : لا يا بنيّه هذا يليق بالعرسان كالامير حسن . فخجلت الفتاة . فاشارت اليها صاحبة الدار بان تنثر منه على الامير حسن وتضعه على المنضدة ، ففعلت وجاءت بباقة من الياسمين فوضعتها في اناء ظريف بجانب القمقم . ولحقتها خادمة اخرى حاملة طبق

المرطبات من عصير البردقال والورد وقد سبقتها رائحة الشراب في القاعة الواسعة . ولم تمض ربع ساعة حتى جاءت خادمتان اخريان باطباق الفطور وتلتهما القهوة في ابريق من النحاس مطعم بخيوط فضية بديعة الصنع . وكانت الفناجين من الصنف نفسه كأنها اولاده . ثم قدموا للقس انطون شبقاً طويلاً . ودار الحديث بينه وبين صاحبة البيت فأخبرها بغايته من القدوم ولمح لها عن مقابلة الامير حسن لدلال صباح اليوم وما رأى فيها من الميل اليه وانه سيقصد بعد قليل الى دار والدتها برفقة الامير فيطلب له يدها ويؤمل ان يفوز بها . فشكرت له عنايته بولدها وقالت له « ان حسن واولادي هم اولادك وتربيتك يا حضرة المحترم فافعل ما تراه في مصلحتهم . ولي ميل خاص نحو الاميرة دلال لرزانتها على صغر سنها ووداعتها ورقة شعورها ورجائي ان لا تحول والدتها هذه المرة دون ميلها فتزوجها الى من لا توده كما فعلت بابنتها سعاد . فهي تعلم — وان لم تتظاهر به — ان هذه الابنة المسكينة غير مستريحة في زواجها . نعم ان زوجها يحترمها وهي قائمة بواجب الطاعة له كما يليق بابنة اصيلة مهذبة ولكن قلبها ليس له . ورباط الزواج الحب لا الاحترام »

قالت هذا ونظرت بحنو الى ولدها حسن فرأته مطرق الرأس متأثراً . فتنبهت على انها اصابت منه جرحاً وحاولت ان تداوي خطأها فاردفت قائلة « ولكن دلال اقرب الى القلب من شقيقتها . فهي ملاك مصوّر حُسناً ولطفاً وقلبي يحدثني انها ستكون ابنتي وسأحبها من صميم قلبي وادللها دلالاً ليس بعده دلال »

قالت هذا وأشارت الى وصيفتها فجاءت ودعت الكاهن ليستريح في غرفته .

وبعد ساعة كان حسن والاب انطون امام دار عمه الامير حيدر شهاب وهي افخم من دارهم واوسع منها . واول ما اتجه نظره اليه تلك النافذة المحبوبة ولكنه لم يتمتع طويلا بالتأمل فيها اذ تصدى لهما الامير يوسف قعدان شهاب خارجاً من الدار . وهو شقيق الامير فاعور زوج سُعاد . فاحس حسن لاول وهلة بانقباض لم يعلم سببه ، فنسبه الى التشابه الغريب بين هذا الامير واخيه الامير فاعور مزاحمه .

لكن الامير يوسف لم يلاحظ ذلك بل اسرع الى القس انطون وقبل يده بحرارة ثم التفت الى الامير حسن وصافحه بصفاء نية . وكان الامير يوسف جميل القامة طويلها عريض المنكبين مع نعومة في بشرته اسمر اللون قوي العضل ولم يكن في وجهه مسحة من جمال الامراء لكن ملامحه كانت تدل على الرجولية والعزم والبطولة ، مع انه لم يكن يتجاوز الرابعة والعشرين من عمره

فسأله القس انطون

— اي متى شرفت اعبيه يا امير يوسف

— مساء اول من امس . ارسلني الامير بشير لا بلّغ مشايخ كسروان رغبته في ان يسرعوا مع كل رجالهم الى دمشق لان الامير مهتم كثيراً بانجاز المهمة التي كلفه الوزير اياها . وقد اصدر الامر لكل مقاطعات لبنان بالحضور وانذر من يتأخر عن اسبوع بالسخط عليه لان المعارك قريبة الوقوع . وقد سدّ سليمان باشا كل الطرق لئلا يبلغ الخبر يوسف باشا ، لكن اعرابياً من ديار الشام من بني صخر اعتسف الطريق اختلاساً واتى يوسف باشا فاخبره بالحملة عليه . فقام من فوره عن المزاريب ، حيث ذهب ليصد الوهابيين عن مقاطعته ، ورجع الى دمشق وتحصن فيها بالرجال والمهمات . فأشار اميرنا على الوزير سليمان باشا ان يتخذ ما يمكنه من الوسائل لحمل الدمشقيين على التخلي عن يوسف باشا وان يبلغ اعيانهم ومشايخهم الاوامر السلطانية التي تخوله الولاية على مدينتهم. ففعل الوزير حسب اشارته واستدعى وجوه الدمشقيين وقرأ عليهم الفرمان ودعاهم الى الخضوع . وكان الامير بشير حاضراً فأشار عليهم بالتسليم قائلاً « اني آخذ بيد مولاي الوزير . فان لم تطيعوا جردت عليكم عساكر الجبل كقطع الغمام ولا اتحول عنكم حتى اسلمه المدينة ولو خراباً . فان قبلتم نصيحتي فاطردوا يوسف باشا ولا تلقوا بايديكم الى التهلكة . » وفيما هم في ذلك سمعوا هتافاً عظيماً وعلت اصوات التراويد وضرب البنادق فسأل سليمان باشا عن الامر فأجابوه ان الشيخ مصطفى جنبلاط عين اعيان دروز الجبل وصل باربعة آلاف

رجل جمعهم من الشوف والمتن فاستقبلهم الجيش بالفرح. فاضطرب الدمشقيون لورود العساكر اللبنانية وطلبوا مهلة ثلاثة ايام ريثما يقنعون يوسف باشا او يتدبرون لهم امراً، وعادوا الى واليهم فأخبروه عن قوة الجيش اللبناني وعدده واشاروا عليه بالتسليم. فحرق أسنانه وقال لهم: لولا هؤلاء الجبليين لعلقت رأس سليمان باشا طعاماً للغربان. ولكني باذن الله ساتغلب عليهم بالحيلة او بالقوة. ومهما يكن الامر فلا اسلمن المدينة الا خراباً وبعد ان ادافع عنها طاقتي فأموت تحت انقاضها.» ولكننا واثقون ان الدمشقيين سوف لا يوافقونه على خراب مدينتهم.

فسأل القس انطون الامير يوسف

— وهل ينتظر يوسف باشا المساعدة من الخارج

— له امل في الملا اسماعيل صاحب حمص ورئيس عساكر الاكراد في سوريا ولكني لا اعتقد ان المذكور يتجاسر على منازلة الجيش اللبناني وقد خبر بأسه في الماضي وذاق منه الامرين.

— ومتى تعود الى دمشق

— غداً صباحاً ليتسنى لي حضور المعارك من اولها لان شرف الجبل متعلق عليها.

قال هذا والحماسة بادية في كلامه. فابرقت اسرة القس انطون وقال له:

— بارك الله في وطنيتك يامير يوسف. ونحن ايضاً سنذهب غداً الى الحرب لنأخذ حصتنا من هذا الشرف ونقوم بواجبنا الوطني فهل تنتظرنا فنسير برفقتك

— سيكون لي الشرف بذلك. اني ورجالي تحت امرك. عين لي الساعة يا محترم

— سنكون عندك الفجر لاننا سنمضي الليلة في دار الامير حمود

— لا بل انا ذاهب مع رجالي اليكم في هذا الميعاد

قال هذا واخذ بيد الاب انطون حانياً رأسه وسلم على الامير حسن وانصرف. واذا بصاحبة الدار تهتف منتظرة على باب القاعة

— تفضل يا محترم تفضل يا امير حسن الساعة شديدة الحر

فدخل الاب انطون القاعة وفيها أثمن الرياش ولكنها مفروشة بلا ذوق فقد كانت التحف الثمينة مكدسة هنا وهناك بغير ترتيب ولا تناسق . فانحنى الامير حسن وقبل يد امرأة عمه فبادرها القس انطون قائلاً :

— ان الامير حسن مقصر في واجباته نحو حضرتك . نعم ان صحته لم تكن على ما يرام ولكنه لم يجسر على الاعتذار اليك وحده فكلفني ان اصحبه لارجوك ان تصفحي عنه .

فأجابت الاميرة بلهجة التكلف

— « كل شيء عند العطار في منه . الا حبني غصب ما في منه » ما لنا حظ مع الامير حسن . كنت انتظره من اربعة ايام فجاء ودخل صحن الدار وعاد كاللص مكتفياً بالسؤال عن عمه وعن سعاد كأنه غريب عن اسرائيل ، ولما اخبرته دلال ان عمه في الحرب قفل راجعاً من دون ان يسأل عني كأني لست بصاحبة الدار ولا امرأة عمه

فلاحظ القس انطون ان الامير حسن مستثقل كلامها فقاطعها قائلا :

— هذا يدلك يا حضرة الاميرة على شدة خجله من تأخره في القيام بواجباته وثقي ان سبب مجيئه ذلك اليوم كان للاعتذار ولكنه لم يجسر ان يدخل وحده . فقصدني الى بتدين ليحملني على مرافقته . ولما كنت على اهبة السفر معه الى الحرب جئنا لنقدم واجباتنا ونقف على خاطرك ونطلب ان تشرفينا بخدمة للامير حيدر .

— اشكر لحضرتك تلطفك فقد كلفت الامير يوسف تبليغه بعض الامور . اذاً ترافقونه غداً الى الشام

— نعم لقد تواعدنا معه الى الفجر

— وقد استعاد الامير حسن شجاعته فعزم على الانضمام الى الحملة ؟

— لم يفقد شجاعته قط ولكنه فقد شيئاً من صحته وقد تعافى الآن فهو اول من يقوم بواجبه . وحضرتك تعلمين ان الامير حسن ليس ممن يخافون الحرب

— والنعم منه . فقد كنت اظن انه يفضل العود الى صيدا ! . .

اخذت امارات الاستياء تبدو على محيا الامير حسن لانه كان يكره امرأة عمه . فشعر وهو يسمع كلامها القارس وتلميحاتها الثقيلة بمراجل الغضب تغلي في صدره وكان على وشك ان يوقفها عند حدها . لكن القس انطون استدرك الامر بنظرة اعادت اليه رشده . ثم اسرع في الجواب قائلا :

— حضرتك اول من يعلم بالاسباب التي حملت الامير حسن على هجر دار أبيه الى صيدا . . . وثقي انه عاد منها رجلا وعزم على ان يبدأ بحياة جديدة تجعلك اول من يرضى عنه وتحقق آمالنا فيه . وهو راغب في انشراح خاطرك عليه وان تتخذيه ابناً لك .

— ربنا يخليه لامه

— وهل تمانعين ان تكوني له اماً ثانية ؟

— لي الشرف ولكني لم افهم ما تعني بكلامك هذا

— اعني ان سمحت له بيد الاميرة دلال اصبح لك ابناً للحياة .

فأجابت ببرودة

— لنا الشرف في مصاهرة الامير حمود والامير حسن ولكني آسفة على ان دلال موعودة للامير يوسف

فانقض هذا الخبر على حسن كالصاعقة واسودت الدنيا في عينيه ولم يعد يعي

ما يقول . فعارضها وصوته يتهدج بالغضب

— ومتى خطبها الامير يوسف ؟

فاجابت الاميرة بغطرسة وكانت تلفظ كلماتها بتأن وحقد كأنها ترغب في ان تكون كل كلمة كخنجر تغمده في قلبه :

— لم يخطبها بعد رسمياً . انما خرج الآن من عندي بعد ان نال رضاي وكان قد فاز في دمشق بعطف والدها . ويكفي ذلك لتصبح دلال له .

فخاف القس انطون ان يصدر من الامير حسن ما لا يليق به فتوسط في الامر قائلا :

— ان حضرتك وحضرة الامير حيدر صاحبا الكلمة في امر الاميرة دلال . واسمحي لي بالقول ان امرها كله في يد حضرتك . ولما لم تتم بعد خطبتها فأملنا ان تراعي هذه المرة عواطف الامير حسن وحق القرابة فتفضليه على غيره

فعادت الاميرة الى ضبط نفسها واجابته :

— لم يعد الامر في طاقتي لان الامير يوسف نال مني وعداً ووعد الامراء دين

— ولكن هل تأذنين لي ان اتطفل بكلمة ؟

— العفو يا حضرة الاب فانك من اهل البيت وكلنا اولادك . ولكن يصعب علي ان تكون هذه المرة الثانية التي لا نتمكن فيها من تلبية رغبة الامير حسن ووالده فقد ارتبطنا مع الامير يوسف ولا يليق بشرفنا اخلاف الوعد .

— لا اقول اخلاف الوعد بل تلافي ما لا تحمد عاقبته من النفور بين البيتين . فالامير حسن ابن عم الاميرة دلال وله حق التفضيل على غيره . ثم ان ديانتنا تحتم علينا الاخذ برغبة الطرفين . وربما كانت الاميرة دلال اكثر ميلا الى الامير حسن .

فقاطعته الاميرة بشيء من الحدة

— لا ارادة للبنت سوى ارادة والديها ولا افهم للديانة حقاً للتدخل في الشؤون العائلية

فأجابها القس انطون بلهجة الحزم

— ان الزواج في كل الديانات عقد بين الرجل والمرأة وهذا العقد في ديانتنا لا ينفصم الا بالموت . ولما كان يوجب على الطرفين واجبات صعبة ويربطهما برباط لا يحل العمر كله اصبح لكل منهما الحق في ابداء رضاه بكل حرية قبل الارتباط بهذه الواجبات والشروط . حتى ان الكنيسة منحت للطرفين الوقت الكافي ليتعارفا ويختبر الواحد اخلاق الآخر حتى اذا رأى بعد التبصر ما يوافقه اقدم على الزواج بحرية تامة ، فلا يعود له بعد ذلك عذر في الانفصال

— ومن أين تعلم حضرتك ان دلالا تفضل الامير حسن ؟

— لم اقل ذلك بل رجوتك ان تسأليها لعلها تفضله فيكون للامير حسن الحق في التقدم على الامير يوسف

فأثار هذا الكلام في نفس الاميرة المتعجرفة غضباً لم ينتظره الكاهن واجابته بوقاحة

يمكنك ان تقول هذا الكلام للفلاحين لا للامراء . فان كنا نحن الامراء نسمح لحضرتك بدخول بيوتنا والكلام في حضرتنا فلا نسمح لك ولا لاكبر منك بالتدخل في شؤوننا

فلم يعد حسن يقوى على ضبط نفسه امام هذه الاهانة التي لحقت استاذه بسببه. فقال لها بحدة

— اذا كنت يا ست لا تعترفين بحق الكلام الا للامراء فانا امير ابن امير وحفيد الامير منصور حاكم هذه البلاد . وها اني اعلن على رؤوس الملا اني لا اسمح لكِ ولا لاعظم منك بان يأخذ مني دلالا .

ثم بلغ به الغضب أشده فنهض واستل خنجره وهزه مهدداً :

— وانا احلف لك برأس ابي وشرف الامارة انني افضل ان اذبحها ذبحاً بهذا الخنجر واذبح نفسي فوق جثتها على ان ادع غيري يلمس ظفراً منها .

قال هذا وخرج

واراد القس انطون ان يهم في الانصراف للاهانة التي لحقته من الاميرة ولكنه رأى بعد هذا التهديد الذي فاه به حسن ان واجبه يقضي عليه بالتريث وتخفيف وقع هذا الكلام فتغلب على نفسه وظل جالساً . فالتفتت اليه الاميرة وشفتاها ترتجفان غضباً وقالت له :

— وانت تريد ان اسلم ابنتي لهذا المجنون ؟

فاجابها القس انطون وقد استعاد هدوءه

— لو كنتُ اميراً . . . لتجاسرت وأجبت ان جنونه منك وبيدك . ولكني فلاح فلا يحق لي الكلام امام الامراء .

— انا لم اقصد اهانتك بما قلته ، ولكنك اكثرت من ترديد كلمات « الحرية والحقوق » للابناء مع اني كنت انتظر ان تؤيد بصفتك الكهنوتية حقوق الوالدين على اولادهم في مثل هذه الظروف وخاصة امام شاب طائش كالامير حسن . ومهما يكن من الامر فاني شديدة الرغبة في تفسير ما قلته اخيراً من ان جنون هذا الشاب مني و بيدي . فهل هو ابني وربيبي ؟

— لقد كان الامير حسن مع حدته اعقل الشبان . ولكنه من الذين يندفعون وراء غرضهم بكل قواهم العقلية والمادية . فان سُهل لهم عمل الخير كانوا قديسين وان دُفعوا الى الشر كانوا شياطين . فهم كالشلالات اذا وجهت في الطرق النافعة ادارت الطواحين وسقت البساتين واذا اهملت او عوكست خربتها .

فقد اوجدتِ امامه اميرتين من اجمل الاميرات واحسنهن تربية وخصالا . فأحب الاميرة سعاد حباً مفرطاً ووضع فيها كل سعادة حياته فحرمته اياها وسمحتِ بها لغيره ففقد صبره وكان يفقد رشده و يأتي بما لا تحمد عقباه لو لم يهجر دار ابيه ويبتعد عنها . فهرب الى صيدا ليهرب من نفسه . وهو معذور لان الاميرة سعاد كانت حبه الاول وقد وضع فيها كل آماله . ولما عاد من صيدا وهو يائس من

الحياة رأى الاميرة دلالا فمال اليها لانها صورة مصغرة للاميرة سعاد وكأنه وجد فيها سفينة النجاة فتعلق بها. وثقي انه لو لم يجد منها ميلا اليه لما هام بها بهذا المقدار ولما فاه بهذا التهديد الذي سمعته منه الساعة . لان المسألة لديه مسألة سعادة او شقاء الحياة كلها . فهو معذور في هذا الامر . افلا يجب علينا ان نسهل لهذا الشاب سلوك الطريق السوي التي تشرفه وتشرف الامارة عوضاً من ان ندفعه في طريق الشر والجنون . وهو من بيتكم وابنكم . وما انا الا غريب عنكم . وانا واثق من انه سيكون من اعظم الامراء اخلاقاً ونفعاً للوطن اذا وافقته على طلبه

— من يكن طبعه مثله فلا سبيل الى اصلاحه وحضرتك تعلم ان الامير حسن قد أمعن في الفساد في صيدا وصفد فاضاف الى سوء اخلاقه عادات لا تليق بالامراء وتجعل كل والدة تخاف منه على ابنتها . وهب انه يحب دلالا وانها توافقه على ميله فهي صغيرة لا تميز الغث من السمين وقد يكون لها في بدء الامر من اخلص الرجال، ولكن اتضمن انه يستمر على ذلك ؟

— نعم اضمن ذلك لاني اعرف انه اذا احب أحب الى النهاية

— انت تعلم يا حضرة الاب قبل غيرك ان « ذنب الكلب وضع في القالب اربعين يوماً فخرج منه اعوج » ومن شب على امر شاب عليه وانا كأم وكأميرة لا يمكنني ان اسلم ابنتي النعجة الوديعة الى هذا الشاب الشرس الفاسد . اقطع الامل من هذا القبيل فاني عاملة لمصلحة ابنتي قبل كل شيء ولا يهمني ان يكون في الجبل الف متشرد مثل الامير حسن .

— فرأى الاب انطون ان لا سبيل الى اقناعها فأجابها

— ستحقق الايام ما قلته في شخصه ولو كانت نتائج رفضك الوخيمة مقصورة عليه لهان الامر . ولكنني اخاف ان تتجاوز الى العداوة بين بيتكم وبيت الامير حيدر بل والى اكثر في ذلك بمراحل . ولكني آمل ، بعد ان يبرهن الامير حسن على حسن سلوكه في هذه الحرب، ان تغيري افكارك فيه وتراعي الظروف التي تحيط بطلبه

فاجابت الاميرة بعجرفة

— « السماء والارض يزولان وحرف واحد من كلامي لا يزول» ولا يهمني بعد مصلحة ابنتي أرضي الامير حمود وغيره او لم يرضوا . فهم ارباب في بيوتهم وانا ربة في بيتي .

فانصرف القس انطون دون ان يجيبها وقلبه يحدثه بشر عظيم سيشمل الجبل كله من وراء عناد هذه المرأة

٥

المراهنة

افاق حسن في اليوم التالي غلساً على صهيل الخيول وتراويد الرجال فاذا برجال الامير يوسف يحيطون بالدار . وكان الارق قد لازمه قسما كبيراً من الليل بسبب التهيج الذي اعتراه من محادثة امرأة عمه ولم يغمض له جفن الا في ساعة متأخرة من الليل . فنهض مسرعاً وأطل من النافذة المشرفة على صحن الدار فرأى القس انطون يسير الهوينا مع الامير يوسف ، فخجل من تأخره واسرع في ضم ثيابه والتحف بعباءته وخرج اليهما وانحنى على يد الكاهن فقبلها . ثم رأى ان واجبات الضيافة واللياقة تضطره الى مجاملة الامير يوسف مزاحمه فمد اليه يده ، فتناولها الامير يوسف وهزها باخلاص . فسري عن الاب انطون الذي كان واجساً من تلاقي الاميرين بعد حادثة امس . واذا بوالدة الامير حسن تطل من نافذة القاعة وتدعو الضيفين الى تناول القهوة فاعتذر الامير يوسف بقرب بزوغ الشمس وطول المرحلة . فبادرته صاحبة الدار بقولها :

— عهدي بالامير يوسف عارفاً بقواعد الضيافة فلا يجوز ان يترك دار الامير حمود قبل ان « يكسر الصفرة » . فلم ير الامير يوسف بداً من مجاملتها فدخل القاعة واكل شيئاً مما قدم له وتناول القهوة . وكانت الاميرة قد أمرت بالطعام والقهوة

ولفائف الدخان لجميع الرجال . فأكلوا ودعوا لها وللامير حمود وللامراء انجالها بطول البقاء والعودة منتصرين وللدار بالعمران والافراح . وكانت والدة الامير حسن قد علمت من القس انطون بكلما دار من الحديث مع والدة دلال فرجته سراً ان يراقب ابنها حسناً ويجتهد في منع كل مشاحنة بينه و بين الامير يوسف ريثما تنتهي الحرب فيسعون في التوفيق بينهما .

وقد وقع بعد ساعة ما كان القس انطون يخشاه . و بيان ذلك ان حسناً كان غارقاً في هواجسه فترك حصانه يسبق الكاهن والامير مع ان العرف يقضي ان يكون الكاهن في رأس القافلة و بعده الامير يوسف لانه اقدم سناً من الامير حسن . ولما فطن حسن لخطإه غاد القهقرى معتذراً . فقال له الامير يوسف مازحاً :

— يسرنا يامير حسن ان تكون دائماً السابق .

فظن حسن انه يشير الى تأخره عن هذه الحملة . فأجابه بضحكة معنوية :

— اني السابق دائماً الى صيد الرجال والامير يوسف واخوه السابقان الى صيد الغزلان . . .

ففهم الامير يوسف انه يشير الى فوزه بدلال وفوز اخيه بسعاد فأجابه :

— لو كنا رأيناك تقدمت لتأخرنا بكل ارتياح . .

فأجابه حسن على الفور :

— اذا كنت صادقاً في كلامك فما عليك هذه المرة الا ان تتأخر .

فقال الامير يوسف مبتسماً

— « من وضع يده على المحراث والتفت الى ورائه لا يستحق ملكوت السماء»

فرد عليه الامير حسن بوقاحة :

— « سيصير الاولون آخرين والآخرون أولين »

— هذا لا ينطبق على امراء آل ملحم

— وسيطبقه امراء آل منصور

فخاف القس انطون ان يتحول جدال الاميرين الى ما لا تحمد عقباه . فتدخل في الامر وعكس كلمة امرىء القيس قائلاً :

– « الآن أمر . وغداً خمر » . ان الوطن يطلب منكما في سبيله جهوداً ولا يسمح لاميرين ان يختلفا في هذا الوقت العصيب على مسائل شخصية لا بد ان تسوى بينهما بعد الحرب .

فأجابه الامير حسن :

– لا بل نسويها في اثناء الحرب . فليأخذ الامير يوسف حذره مني .

فقال له الكاهن

انا واثق من انك تقول هذا من شفتيك فقط فشرفك يمنعك من ان تطعن ابن وطنك في ظهره . فليجاهد كل منكما في انهاء هذه الحرب بما يعود عليه وعلى الوطن بالفخر ولا بد ان تتفقا بعد ذلك على الامور الثانوية .

فأجابه الامير حسن

دلال قبل الوطن لان حياتي متعلقة بها .

فقال له الكاهن

لا بأس من ذلك يا بني . ولكن حياتك للوطن اولاً . . .

لفظ الكاهن هذه الكلمة بحماسة اثرت في الاميرين . ثم وجه كلامه الى حسن قائلا :

– ومع ذلك انك لم تفقد بعد الاميرة دلال والامير يوسف لا يخطبها الا بعد الانتهاء من الحرب ،فأمامنامتسع من الوقت للتفاهم ولنحصر الآن جهودنا في المصلحة العامة . الا ترى رأيي يامير يوسف ؟

– نعم ولكن مهما تكن النتيجة فانا لا اتنازل عن الاميرة دلال ما دمت حياً

فقال له الامير حسن بشدة :

ــ اذاً تريد ان تموت ؟

فأجابه الامير يوسف بهدوء وعزم :

ــ ان حياتي في يد الله وحده !

ــ وانا حياتي وموتي في يد دلال . فان ابقيتك حياً فخذها

فظهرت دلائل الاضطراب على الامير يوسف وقبل ان يجيب تداركه القس انطون بقوله :

ان هذا الجدال لا يليق بك يامير حسن ولا بالامير يوسف ، لانكما اميران متحليان بالشجاعة والمروءة والوطنية . ولا يمكن احدكما ان يدنس شرف الامارة والوطن فيتعدى على اخيه في اثناء الحرب التي نحن قادمون عليها . وقد قال المثل اللبناني :

« انا وخيّ على ابن عمي وانا وابن عمي على الغريب » وانما الآن بل كلنا امام عدو غريب يجب ان نتحد عليه لقهره ثم نتفرغ لاختلافاتنا الشخصية .

فأجابه حسن بعزم

ــ انني اريد ان افض هذا الخلاف قبل الحرب .

فقال له الاب انطون

ــ لا بأس . ولكن هل تقبل مني نصيحة اب ؟

ــ نعم

ــ وهل يسمح لي الامير يوسف برجاء ؟

ــ العفو يا محترم . انا ايضاً ولدك

ــ بارك الله في كلا الاميرين وهنأني بكلا الولدين . ان رأيي ان تحكما في هذا النزاع اميرنا المعظم . نعم ان التحدث اليه بهذه الامور في هذه الاوقات الحرجة تعد وقاحة . ولكنني سأتحمل عنكما غضبه في سبيل المصلحة العامة التي ستستفيد لامحالة من اتفاقكما . لانه يعز علي ان شابين من خيار امرائنا لا يتفقان في هذه الحملة على

الخروج منها بشرف

قال هذا ونظر الى الامير حسن . ففطن هذا ان الكاهن يحاول ان يعيد قضيته الى بساط البحث ويعد العهد الذي فاز به الامير يوسف امراً يجوز الرجوع فيه فيفتح المسألة من اولها . فأجابه الامير حسن بعد تردد قليل

ـ الامر امرك يا أبت

فالتفت الكاهن الى الامير يوسف فألفاه متردداً في القبول فقال له :

ــ واملي ان الامير يوسف لا يخجلني فيفضل المصلحة الوطنية على الشخصيات

فاجابه بعد شيء من التردد

ــ لا بأس . . .

فسر الكاهن بهذه النتيجة وقال :

اذاً تحكمان الامير بشير بهذا الخلاف ؟

فاجاب الاميران

ــ نعم ! . . .

وكانوا قد بلغوا الى عين ماء باردة فعزموا على النزول بجانبها طلباً للراحة . ولما ترجل الاميران أمسك القس انطون يد الامير حسن وجذبه الى الامير يوسف . ثم قبض على يمين الامير يوسف ووضعها في يمين الامير حسن قائلا :

كونا أخوين ! . . .

وكان الامير يوسف شهماً طيب القلب كبيره مشهوراً بالشجاعة والمروءة والحلم فانكب على يد الاب انطون وقبلها قائلا :

بما انك يا محترم والد الاثنين فنحن أخوان .

قال هذا وارتمى على عنق الامير حسن وقبله قائلا :

ــ انت أخي الصغير . وسنقاتل جنباً الى جنب

ثم هتف بحماسة

فليحيي لبنان فليحيي وطننا العزيز ! أنا فداؤه جسما وقلباً .

وكان الرجال ينظرون من بعد الى هذا المشهد متعجبين دون ان يفقهوا له سبباً. ولكنهم لما رأوا الاميرين يتعانقان وسمعوا الامير يوسف يهتف للوطن تحمسوا وهتفوا بصوت صم الآذان ورددته الاودية والهضاب :

— فليحيي لبنان ! نحن فدى لبنان !

فتحمس الامير حسن وكان السرور قد عاد اليه لفوزه باعادة النظر في امر دلال وفتح باب الامل امامه فجادت قريحته بالازجال وأخذ ينشدها بحماسة والرجال يرددون الشطر الثاني من كل بيت. وجدّوا في المسير بنشاط حتى باتوا تلك الليلة في زحله وكانوا في عصر اليوم التالي في الجيش اللبناني المعسكر في ضواحي دمشق .

وسمح الامير بشير للقس انطون وللاميرين رفيقيه بمواجهته بعد وصولهم بقليل فدخلوا عليه ورأوه جالساً مع بعض كبار الامراء اللبنانيين ورجال سليمان باشا في سرادق عظيم كأنه قاعة فسيحة من سرايه وقد زين بالرسوم الشرقية والآيات الحكمية بارزة بخطوط بيضاء على قماش احمر زاه

وكان منظر الامير وهو في صدر السرادق يبعث في القلوب الهيبة والوقار. فقد ارخى لحيته فنزلت على صدره متجعدة وكان وميض عينيه يمر تحت حاجبيه الكثيفين كبرق متواصل بين الغيوم المتلبدة . ولما صار القس انطون امامه واراد ان ينحني لتقبيل اتكه اخذه بيده واجلسه عن يمينه قائلا : انك جئت في ساعة الحاجة اليك ايها المحترم . ثم سمح للاميرين بتقبيل يده فلما قرب الامير حسن منه اعطاه يده قائلا

— اهلاً وسهلاً بالابن الشاطر . لا بد ان « نذبح هذا المساء العجل المسمن لعودتك الينا سالماً »

فأجابه القس انطون

— ان الامير حسن جاء متأخراً في الساعة الحادية عشرة لكنه بانظار سعادتك سيعمل في ساعة ما كان عليه ان يعمله النهار كله . فقد تعافى باذن الله تماماً واستعاد

نشاطه وهو لم يفقد قط شجاعته ووطنيته

فالتفت الامير بشير الى القس انطون قائلاً :

ـ املنا ان يحقق كلامك ، ونحن اول الراضين عنه .

ولما خرج الاميران اومأ الامير بشير الى حسن اغا الحاجب ففهم الحضور ان الامير يرغب في انصرافهم فانصرفوا وامسك الامير بشير القس انطون والاميرين حمود وحيدر مستشاريه والمعلم نقولا الترك كاتبه واوصى الحاجب بان يمنع الدخول اليه ثم التفت الى الكاهن وقال :

– اننا على ابواب المعارك وسنتقدم غداً لاحتلال المواقع المشرفة على دمشق ونقيم عليها الحصار من كل جانب ونشدد عليها الخناق . ولا نظن ان يوسف باشا يصبر على الحصار وربما هاجمنا قبل ان نتمكن من تطويق المدينة . وقد علمنا انه ارسل الى المنلا اسماعيل صاحب حماه ورئيس الاكراد ان يوافيه برجاله ولكن المنلا بعث يستفهم عن حقيقة الخلاف بينه وبين سليمان باشا ليتخذ الخطة التي يراها في مصلحته . ورأيي ان نبعث اليه بمن يطلعه على الاوامر السلطانية التي تعلن اقامة سليمان باشا على دمشق فيمتنع عن مساعدة يوسف باشا ولا سيما اذا علم اننا اعداؤه لانه لا يجسر على منازلتنا . فلا يبقى امامنا من نازله غير يوسف باشا وعساكره فقط وليس فيهم من يحسب له حساب غير الاكراد الذين في خدمته وهم اصحاب بطش لكنهم مأجورون . فما رأيك يا حضرة المحترم ؟

فأجاب الكاهن :

– الرأي لسعادتك .

وكان الامير يعلم بشدة فراسة القس انطون فقال له :

– تكلم بحرية فاننا واثقون بفطنتك ووطنيتك .فتشجع الكاهن وقال :

ان رأي سعادتك باطلاع المنلا اسميل على الاوامر السلطانية هو الصواب بعينه لانه سيمتنع بلا شك عن مساعدة يوسف باشا مراعاة لهذه الاوامر وخوفاً

من بأس اللبنانيين ومعاداة حليفهم الوزير سليمان باشا

فان لم نتمكن من اقناع المنلا بالانضمام الينا حملناه على ارسال الاوامر الى الاكراد مرؤوسيه المقيمين في خدمة يوسف باشا ليتخلوا عنه . ولنا في مواطننا الياس اده مدبر المنلا وكاتبه خير مساعد على ذلك والاكراد سيأتمرون لا محالة بامر كبيرهم. فنشل يد يوسف باشا ونربح بالحيلة اكثر مما يمكننا ربحه بالقتال ، فضلا عن صيانة الارواح والاموال . فالحيلة دائماً اقل كلفة من الحرب .

فبدت على محيا الامير بشير المهيب علامات البشر والانشراح والتفت الى الكاهن وقال :

— بارك الله فيك من مرشد متوقد الذهن يتلهب وطنية

ثم اتجه الى المعلم نقولا وقال :

ـ عليك يا معلم ان تكتب على الفور الى المعلم الياس اده بهذا الخصوص والحق الكتابة بصورة من الاوامر السلطانية وارسل التحارير مع علي حبق ، فهو اسرع من الغزال في هذه السهول . ولنتريث في القتال ريثما يعود الرسول فنمتلك بورقة ما قيمته مهج الرجال .

ولما خلا الديوان من رجال المشورة تأخر القس انطون عنهم قليلا . فادرك الامير ان لديه امراً خاصاً يريد ان يبديه سراً فبادره بالسؤال :

— هل من حاجة نقضيها لعزيزنا المحترم ؟

فانحنى الاب انطون شاكراً وقال :

ان حاجتي في سبيل الوطن . نعم ان ما اطلب عرضه على سعادتك يتعلق بمشكلة شخصية . . . بامر زواج احد الامراء . ولكن حلها بفطنة سعادتك يتلافى خطراً وطنياً ويكسبنا اميراً مقداماً أجبرته الحوادث على الخروج عن الطريق السوي. فقد قصدني الامير حسن حمود الى بتدين لاطلب له يد الاميرة دلال ابنة عمه وسعادتك تعلم ان رفض تزويجه بشقيقتها الاميرة سعاد القاه في الطريق المتوية التي

التي سار بها السنتين الاخيرتين . فتدخلت في الامر وذهبت بصحبته الى والدة الاميرة دلال وحادثتها برغبته فأجابتني « ان الاميرة موعودة للامير يوسف قعدان» ولكن ليس هناك خطبة رسمية . وقد كاد الامير حسن يفقد رشده في هذه الصدمة الثانية واخاف ان لا يملك نفسه هذه المرة فيقدم على ما لا تحمد مغبته ويفتح شقة خلاف عظيمة بين اهله وبيت الامير حيدر عمه وآل ملحم وآل منصور . ونحن الآن احوج الى الاتحاد من كل وقت آخر . فرأيت ان اسعى لحمل الاميرين حسن ويوسف على تحكيم سعادتك في هذا الامر . فالاميرة دلال على ما ظهر لي تميل الى الامير حسن ولكن والديها يحتجان بعهدهما للامير يوسف . ويعتقد الامير حسن ان رفضهما ناتج هذه المرة ايضاً عن نية سيئة وتعمد الاهانة وهو مصمم على ان يفوز بالاميرة دلال مهما كلفه الامر .

فقطب الامير بشير حاجبيه لخفى على القس انطون ما تنطق به عيناه . وبعد هنيهة قال :

ــ سننظر في الامر غداً . بلّغ الاميرين حسن ويوسف ان يكونا عندي الساعة الثانية صباحاً . والآن اذهب حضرتك فاسترح .

وفي صباح اليوم التالي في الساعة المعينة وقف الشابان متأدبين بحضرة الامير بشير ليسمعا منه الحكم على قلبيهما . فبش الامير فيهما وقال :

ــ انني اعد نفسي كوالد لكل منكما وخاطر أهلكما عزيز علي . فلا يمكني تفضيل الواحد على الآخر في هذا الامر . فالأميرة دلال ستكون لمن يستحقها منكما في هذه الحرب . وقد جعلت نفسي الحكم في من يكون اكثر استحقاقاً لها .

فلم يجسر الاميران على الاعتراض . فتقدم الامير يوسف وقبل يد الامير بشير قائلاً :

ــ انا وأخي الامير حسن نتشرف بان تكون والدنا وقاضينا .

فالتفت الامير بشير الى حسن وسأله :

ــ وهل انت موافق على هذا الكلام ؟

ــ انا قابل سلفاً حكم سعادتك على قلبي بشرط ان تكلفني اصعب مهمة في هذه الحرب . فان قضيتها ربحت دلال . وان مت فديتها بنفسي .

٦

الجاسوس

وفي صباح اليوم التالي علم الامير بشير ان يوسف باشا عدل عن انتظار نجدة المنلا اسمعيل ونوى مباغتة اعدائه ، فامر الامير باحتلال قريتي الجديدة وداريا في جوار دمشق ليقف في وجه عساكر يوسف باشا اذا خرجت ويطوق المدينة اذا لم تخرج . فوضع في المقدمة فرقة الدالاتية التابعة لجيش حليفه سليمان باشا ووراءهافرقة من مشاة اللبنانيين بقيادة الامير يوسف قعدان لانه لم يكن يأمن ثبات هؤلاء المأجورين . ثم رتب فرسان الامير حمود والد حسن في الجناح الايمن لشدازر المشاة والهجوم عند الحاجة وصف بقية الامراء والمشايخ النصارى والدروز والمتاولة مع رجالهم في نقط مختلفة واحتفظ لنفسه بالقيادة العامة . فباتوا تلك الليلة على حذر وقد نشروا العسس في كل جهة . ولم ينبلج الفجر حتى قامت صيحة هائلة واذا بفرقة من الفرسان الاكراد الملتحقين بجيش يوسف باشا تداهم الدالاتية وتلقي الرعب في صفوفهم . فحاول الدالاتية في بدء الامر الثبات لكن الاكراد تكاثروا عليهم فاطلقوا سيقانهم للريح

وكان الامير حمود قد كلف ولده حسن قيادة فرقة الفرسان الخاصة به فنهض حسن بعيد نصف الليل وأعد رجاله للقتال . فلما سمع الضجة في معسكر الدالاتية انقض بفرسانه لنجدتهم ولما رآهم منهزمين صاح برجاله : سيوفكم ياشباب . عليكم بهؤلاء الانذال . وما هي الا ثواني قصيرة حتى التف اللبنانيون بالهاربين وامعنوا فيهم قتلاً . واذا برئيسهم يعترض لهم فهجم الامير حسن عليه وأطار رأسه وأوغل مع فرسانه في صفوفهم حتى اعادهم على اعقابهم . فانبرت له خيالة الاكراد فاشتبك اللبنانيون معهم بالسيوف والرماح وعلا الصياح وصم صهيل الخيل الآذان واخذت الرؤوس تتطاير والخيول تتخبط بدمائها والجثث تتكدس واختلط الحابل بالنابل . فصرخ الامير حسن برجاله عليكم بالقاووق ، وهي قبعة عالية يلبسها الاكراد، فكان اللبنانيون كلما صادفوا قاووقاً أطاروا رأس صاحبه . لكن الاكراد تكاثفوا عليهم . فكانوا كلما ازاحوا صفا منهم ظهرت وراءه صفوف حتى كلوا وايقنوا بالهلاك . واذا بهتاف يصم الآذان واسم « جنبلاط » يهز الجو كقصف الرعد وما هي الا ثانية واختها حتى انقض فرسان الدروز بقيادة الشيخ مصطفى جنبلاط على الاكراد كما ينقض البواشق على الفريسة . فانتعش فرسان الامير حسن وتكاتفوا مع فرسان الدروز وهجموا هجمة صادقة اعادت الاكراد القهقرى . ولكنهم لم يخطوا مثني ذراع حتى شاهدوا جيش يوسف باشا قادماً عليهم كالغمام الزاحف في السهل . فجرفهم وتقدم بقدم ثابتة الى الاكمة التي يحتلها مشاة اللبنانين. فكان اصطدام هائل . لان يوسف باشا رأى ان يقذف في هذه المباغتة بكل قواته قبل ان يتمكن اللبنانيون من تحصين مراكزهم وكاد ينجح في ازاحتهم عنها لولا ان الامير يوسف تحمس وقذف برجاله على الهاجمين فاصطدم بهم ولكنه لم يزحزحهم وما عتم ان احس باستظهارهم عليه فتقهقر . وركب الدمشقيون في اقفية رجاله فاضاع اللبنانيون الطريق التي جاؤوا منها ووجدوا انفسهم امام خندق كبير جاف حفره

اهل دمشق لصد غارات البدو عن مدينتهم . فرأى الامير يوسف انه واقع لا محالة بالاسر مع رجاله فخطرت له في هذا المأزق فكرة حوّلت الخطر الى فوز مبين . فصاح برجاله : قبوركم في هذا الخندق ! فاحتلوه واختفوا فيه عن ابصار مطارديهم. فهتف بهم ثانياً : صوبوا بنادقكم الى العدو وانتظروا الاشارة ، ففعلوا . ولما صار العدو على مسافة نحو ثلاثين ذراعاً امرهم فاطلقوا بنادقهم دفعة واحدة فحصدت الصف الاول منه . وتابعوا اطلاقها فكانت صفوف الهاجمين تسقط الواحد تلو الآخر كأن منجلا هائلا يحصدهم حتى هلك منهم عدد كبير . فكرّ رئيس الاكراد بفرسانه وحاول تطويق الخندق واذا بالامير حيدر الشهابي والامير جهجاه حرفوش المتوالي ينقضان عليهم برجالهما ويشتتانهم . فخف الضغط عن الامير حسن والشيخ جنبلاط ولم يعد المشاة الدمشقيون يتحملون نيران الخندق فارتدوا بانتظام . وكان الامير بشير يراقب من اكمة عالية كل هذه الحركات ويديرها بمهارة ورباطة جأش فرأى الفرصة سانحة فنادى بالهجوم العام واستل سيفه وصاح : اليّ يا اسود الجبل ! فدبت الحماسة في صدورهم وتحركوا فرسانهم ومشاتهم كتلة واحدة . فكانت ساعة رهيبة زحفت فيها هذه القوة الهائلة كالاعصار فجرفت رجال يوسف باشا وطارد الفرسان اللبنانيون فلولهم كما تطارد النمور فرائسها حتى اوصلوهم الى ابواب دمشق .

وفي مساء ذلك اليوم عاد علي حبق حاملا كتاباً من المنلا اسمعيل الى القواد الاكراد ينهاهم فيه عن مساعدة يوسف باشا وعصيان اوامر الدولة . فجمع الامير بشير وسليمان باشا مجلس الشورى السري واطلعاه على فحوى الكتاب فاستبشر الجميع بالنصر . ثم قال الامير بشير : ولكن علينا ايصال هذه الكتابة الى قواد الاكراد واقناعهم بالتخلي عن يوسف باشا وهذا ليس بالامر الهيّن . فانتهز القس انطون الفرصة وقال للامير بشير :

— نحن في حاجة الى رجل جريء وذي حيلة ليوصل هذا الكتاب الى قواد الاكراد ويفاوضهم لمصلحتنا ويطلعنا على حركات يوسف باشا ونياته وقد

طلب الامير حسن حمود من سعادتك تكليفه اصعب مهمة في هذه الحرب فهلا ترى ان هذا وقته .

فأجابه الامير بشير

— في الحقيقة ان الامير حسن برهن في هذا اليوم عن شجاعة نادرة ولكننا ما زلنا في حاجة الى هذه الشجاعة

— ان المهمة تحتاج الى شجاعة وحيلة واسعة ويتوقف على نجاحها ربح هذه الحرب دون ان تسفك قطرة من دماء رجالنا . فان كان الامير حمود لا يمانع فاني ارى الامير حسن اهلاً لها .

فقال الامير حمود

— نحن جميعاً للوطن العزيز وانا شاكر لسعادة الامير ولحضرة المحترم حسن ظنهما بولدي ومستعد لان افدي الوطن به اذا كان في حاجة اليه . ولي في دمشق صديق حميم هو احمد بك المورة لي من اكابر الاكراد واملي وطيد انه سيبذل جهده في مصلحتنا نظراً للمعروف الذي اولاه اياه الامير بشير بناء على توسطي .

فالتفت الامير اليه وقال له

— بارك الله في وطنيتك وفي اولادك يا مير حمود . وساكلف الامير حسن المهمة ولكن لا يسعني في هذا المجلس الا ان اوجه الثناء الى الامير يوسف قعدان الذي ربح معركة اليوم لثباته في الخندق .

وبعد بضع دقائق وقف حسن في حضرة الامير بشير وكان المجلس قد فض ولم يبق منه سوى الاب انطون . فالتفت الامير الى حسن وقال له :

— لقد برهنت اليوم عن شجاعة ووطنية فحققت مقال الاب انطون فيك، ولكني لا اخفي عنك ان حوادث معركة اليوم اتاحت للامير يوسف مزاحمك الفرصة لان ينال عليك قصب السبق . فلولا تحصنه في الخندق لفشلت في هجومك ورجحت كفة يوسف باشا علينا . فقد كانت القوات المتجمعة عليك فوق طاقة رجالك .

لذلك رأيت من العدل ان اتيح لك الفرصة للتفوق على الامير يوسف واكلفك مهمة ايصال هذا التحرير الى قواد الاكراد وحملهم على التخلي عن يوسف باشا. ويمكنك ان تتفق معهم على المكافأة. لان هؤلاء العساكر يباعون ويشرون كالسلع وهم لمن زاد لهم الاجرة. ولا تنس ان تطلعنا على كل ما ينويه يوسف باشا وعلى حالة المدينة والجيش المعنوية. وتزود من والدك بالمعلومات والتوصيات لاحمد بك الموره لي احد كبار الاكراد في خدمة يوسف باشا.

فانحنى الامير حسن وقبل يد الامير بشير قائلا:

— اني فدى سعادتك وفدى الوطن والاميرة دلال. فعدني بيدها ان نجحت فتتضاعف قواي

اقسم لك بشرف الامارة ان الاميرة دلال تكون لك ان فزت بهذه المهمة.

فلم يجب الامير حسن بشيء. واكتفى بقوله للامير

— اسمح لي بالتحرير.

فدفعه الامير اليه. فأخذه ووضعه في عبه. ثم جثا امام الاب انطون وقال

— زوّدني بركتك يا أبتِ

فوضع القس انطون يديه على رأس الامير حسن وقال له بصوت يرتعش حنانا

— الرب معك يا بني. وكن رجلاً كما اعهد فيك

وبعد مرور ساعتين على هذا الحديث كان ثلاثة من اللبنانيين متزيين بزي فلاحي دمشق ينسلون بين البساتين المحيطة بالفيحاء. وكانت انوار القمر الفضية تقاطع باخيلتهم ظلال الاشجار وتزيد اشباحهم طولا. وقد اوصى الامير حسن، الذي كان واحداً منهم، رفيقيه فهداً وسليماً ان لا يستعملوا الغدارة بل الخنجر او السيف عند الضرورة القصوى. وكان فهد الحلبي يتقدم الثلاثة وهو من دروز ضواحي حلب الذين اختلفوا مع جيرانهم فأنجدهم الامير بشير وجاء بهم الى لبنان ووزعهم على مقاطعات الشوف. وكان شاباً رشيق الحركة ثابت الجنان واسع الحيلة عارفاً بازقة

دمشق وضواحيها كأنها قريته . فلما بلغوا الى احد ابواب هذه البساتين الخشبية عالجه فلم ينفتح فتسلق سور الجنينة المبني باللبن وقفز الى الزاروب الفاصل بين البساتين . واذا بجندي يتصدى له ويضع فتحة بندقيته بين عينيه منتهراً : من الرجل؟ وما هي الا ثانية واحتها حتى كان خنجر الامير حسن في ظهر الجندي. فخر صريعاً يعج كالثور . ولم يخط الجواسيس بضع خطوات في ذلك الزاروب حتى انبرت لهم فرقة من الجنود سمعت خرير رفيقهم فهرولت شاهرة السيوف . وفي اقل من دقيقة احاطت بمحسن ورفيقيه كالسوار بالمعصم . فتقدم حسن الى كبيرهم وبادره بلهجة دمشقية :

— عجل ياسيدي فقد هرب الجبليون من هذا الزاروب بعد ان قتلوا الحارس. قال هذا وأسرع امامهم كمن يدلهم على القتلة . فجازت الحيلة على الجنود وتبعوهم وما وصلوا الى احدى زوايا الزواريب حتى كان اللبنانيون قد اختفوا الواحد تلو الآخر دون ان يشعر الجنود بهم . ودخل الثلاثة المدينة من زقاق مهجور وقصدوا تواً بيت احمد بك الموره لي ووقفوا امام بوابة كبيرة تحرسها ثلة من الاكراد. فاعترض لهم كبيرهم وسألهم عن غرضهم . فانفرد به حسن وهمس في اذنه اسم المنلا اسمعيل. فتفرس الرجل جيداً بمحسن وقال له اتبعني وطرق البوابة طرقاً مصطلحاً عليه مع من في الداخل ففتحت منها طاقة صغيرة مشبكة بالحديد واطل منها رجل كث اللحية اخذ يتكلم مع كبير الحرس وطال حديثهما حتى مل الامير حسن . فصاح به

— ادع سيدك الى هنا

وبينما هم في اللغط والكلام اذ ظهر وراء الطاقة نور ضئيل وشيخ في الخمسين من عمره . وسأل عن القادمين . فتقدم الامير حسن اليه وسلمه تحريراً من والده مختوماً بالشمع الاحمر فتفحصه جيداً على ضوء السراج ثم امر بفتح الباب الصغير وهو جزء من البوابة وقبل ان يهم الجواسيس بالدخول قبض عليهم الجنود . فعرفوا انهم

الفرقة التي التقوا بها بعد قتلهم للجندي . فتوسط كبير الحرس في امرهم واراد تخليصهم فلم يفلح . فخرج صاحب الدار اليهم وسأل رئيس الجنود .

— ما شأنك وهؤلاء ؟

فأجابه

— هؤلاء جواسيس من الاعداء دخلوا المدينة خلسة وقتلوا الحارس وهو اخي

فانتهره الشيخ قائلا :

— بل هؤلاء من فلاحي بستاني .

قال هذا وامر رجاله فهجموا على الجنود وما زالوا يتجاذبون الجواسيس حتى خلصوهم وادخلوهم الدار ، وكانت فسيحة الارجاء . فلما صاروا في داخلها فض الشيخ كتاب الامير حمود وقرأه على ضوء القمر . ثم اشار الى اللبنانيين فلحقوا به وصعدوا السلم الموصل الى الطبقة الاولى . ولما توسطوا الرواق اومأ الشيخ الى الامير حسن باللحاق به وحده فتأخر فهد وسليم ودخل حسن قاعة واسعة مظلمة ولم يلبث الخدم ان جاؤوا بالشموع الكثيرة فضاءت على رحبها وظهر رياشها الفاخر ولمعت الاسلحة المعلقة على جدرانها . وبعد ان اتكأ الشيخ على وسادة واجلس ضيفه قال له باشاً :

— اهلاً وسهلاً بابن صديقنا العزيز . هات كتاب المنلا . فاخرجه من عبه ودفعه الى الآغا فتناوله وفحص ختمه جيداً ثم قبله ووضعه على رأسه احتراماً ولم يفضه لانه باسم رئيس الاغوات . ثم احضرت القهوة فقدم منها فنجاناً الى الامير حسن واحتسى هو ايضاً واحداً . ولما انتهى التفت الى ضيفه قائلا :

— الآن وقد شربت قهوتي اصبح لي الحق بسؤالك عن اسمك . فاني اعرف جيداً الامير حمود واولاده وقد نزلت مع امرتي ضيفاً عليهم شهرين كاملين فأيهم انت ؟

— انا الامير حسن ثالث انجاله وقد كنت حين تشريفك عندنا غائباً في صيدا

— انعم واكرم الان تذكرتك . وكيف حال حضرة الامير حمود والسيدة

الاميرة والدتك وهل جميع اخوتك في الحملة ؟

— نعم

— اذاً انت الامير حسن ابن صاحب الفضل علي وسبب نعمتي . فقد كان مولاي المنلا اسمعيل قد غضب علي فاضطررت الى الهرب بأسرتي وقصدت والدك لاني علمت انه اكبر المقربين الى سعادة الامير بشير فانزلني مع زوجتي وابنتي في داركم على الرحب والسعة وما زال بالامير بشير حتى حمله على استرضاء المنلا عني فاوصى بي آغتنا في دمشق فاعادني الى وظيفتي .

وكان حسن يعلم كل ذلك من والدته ويعلم فوق ذلك ان لاحمد بك ابنة مشهورة بالجمال والذكاء وقع ابن المنلا في حبها وطلبها من والدها . فوعده بها خوفاً من سيده . لكن الصبية كانت غير راغبة فيه لشراسة اخلاقه وسوء سمعته ولميلها الى ابن عم لها . ولما كانت الفتاة وحيدة لاحمد بك لم يرض ان يرغمها على التزوج بابن المنلا . فاعتذر اليه . فخيره المنلا بين تزويج ابنته لولده أو طرده من الخدمة . وكانت امرأة احمد بك من افصح النساء لساناً وارجحهن عقلا واشرف الاكراد اصلاً ، فذهبت بنفسها لمواجهة المنلا واطلاعه على حقيقة الامر فاعترض لها ابنه واسمعها كلاماً لم تطق السكوت عليه . فوبخته على وقاحته وسلوكه وعادت فاطلعت زوجها على ما جرى فهربا بابنتهما من حمص ليلاً ولجأا الى الامير حمود والد الامير حسن . وكانت والدة حسن قد اعلمته ان زوجة الكردي من الطبيبات الساحرات وقدأتت بالعجائب في اثناء مكوثها في دارهم وان لابنتها ، فضلا عن جمالها الفتان ، صوتاً عذباً يطرب الجماد ويسحر الالباب وهي بارعة ايضاً بضرب العود تلعب بأوتاره كما تلعب باوتار القلوب . فاصبح الامير حسن مشتاقاً الى رؤية هاتين المرأتين . ولكنه طرد هذا الفكر الشيطاني من رأسه متذكراً المهمة التي أخذها على عاتقه وعليها يتعلق سعادة وطنه وقلبه . فسأل احمد بك :

-- وما العمل لايصال هذا التحرير الى سعادة الآغا الكبير ؟

— هذا من شأني . ان علي واجباً اقوم به نحو الامير بشير ووالدك . فاسترح الليلة هنا مع رفيقيك وأنا ذاهب في الحال الى الآغا . لاني لا اخفي عنك ان يوسف باشا عازم على الخروج اليكم بعد نصف الليل بجيشه كله ليباغتكم ويفوز عليكم . والقواد الاكراد مجتمعون الآن في دار الآغا للمفاوضة في الامر وهم في انتظاري . وسبب اجتماعهم الاتفاق على خطة يتخذونها مع يوسف باشا قبل الهجوم ليضمنوا مرتباتهم ومرتبات جيشهم . لان الباشا قد تأخر عن دفع رواتب الجيش منذ حملته على الوهابيين ولكنه وعد القواد بعد انتصاره على سليمان باشا واللبنانيين ان يدفع لهم هذه الرواتب مرةونصف مرة . ومع ذلك فانا واثق بانهم اذا علموا باوامر الدولة ضد يوسف باشا وضمنوا دفع رواتبهم لا يلبثون ان ينقلبوا عليه .فقال له حسن :

— اني رسول الامير بشير اليكم وانا اعاهدكم على دفع هذه الرواتب مضاعفة ومستعد ان اكتب لكم عهداً بذلك . وانت تعلم ان الامير بشير اذا وعد انجز .

— سافاتح اذاً الآغا في هذا الامر ايضاً بعد ان اسلمه كتاب المنلا

قال هذا واستدعى الخادم فجاءه بعباءته وسلاحه فشك الخنجر في وسطه وتقلد السيف والتحف بالعباءة . ثم امر رئيس الخصيان أن يستدعي زوجته . ولما ذهب الخادم التفت حسن الى الكردي وقال له :

— الا يحسن بنا ان نبعث الى الامير بشير رسولاً يحذره من مباغتة يوسف باشا؟

فضرب الكردي على جبهته قائلاً :

— اي وايم الحق هذا أولى من كل امر آخر . سأوفد في الحال من يقوم بهذه المهمة.

فخاف حسن من فوات الوقت وفشل الرسول او خيانته فقال للكردي

— لا تزعج رجالك فعندي من يقوم بهذا الامر .

واستدعى الامير حسن فهداً فوقف بين يديه بعد ان سلم على احمد بك فقال له :

هذا وقتك يا فهد . سيخرج يوسف باشا بجيشه بعد ساعتين ليباغت رجالنا . فاذهب في الحال واعلم الامير بشير ليحتاط للامر .

ولم ينته حسن من كلامه حتى صار فهد على الباب . فناداه قائلاً :

— وكيف تخرج من المدينة ؟

فأجابه :

— سافكر في ذلك في الطريق

فقال له احمد بك

— اسمع يا بني . اذا اعترض لك الحرس فقل لهم « المنلا اسمعيل » فيعرفون انك من اتباعنا و يدعونك تخرج وتدخل الليلة . اذهب بسلام ونحن في انتظارك

وفيما هم في هذا الحديث اذ دخلت زوجة احمد بك سافرة وهي امرأة في الاربعين من عمرها ممشوقة القد رشيقة الحركة عليها سيماء الجمال والنبل . فقال لها زوجها :

— هذا الامير حسن ابن الامير حمود صاحب الفضل علينا . فخبئيه في دار الحريم اكراماً لوالديه وانا ذاهب في مهمة وساعود بعد ساعة .

فلم يرق حسن هذا الكلام وقال للبيك :

— اني اشكر لك ولحضرة الخانم ضيافتكما وثقتكما ولكن هذا وقت العمل ولا يليق بي الاختباء في بيت الحريم . فأرجوك ان تأخذني معك الى الآغا فاتحدث معه ومع بقية القواد بشأن مهمتي .

فاجابه احمد بك

— كنت افضل ان تدعني اقوم وحدي بهذا المسعى

فتدخلت زوجته في الحديث وكانت مطلعة على اسرار زوجها ومشتركة معه دائماً في الرأي في شؤون البيت والدولة وكانت قد سمعت من وراء الستار كما جرى بين الاغا وحسن من الحديث . فقالت لزوجها :

ـ ان رأي الامير حسن حسن فاستصحابك له أضمن لاقناع جماعتنا والاتفاق معهم على رواتب الجنود المتأخرة . والا ذهب سعيكم سدى :

فأجابها احمد بك

— رأيك سديد فليصحبني الى الآغا ولكنني لا اضمن عاقبة مواجهته لبقية الاغوات واخشى افتضاح امره وامرنا .

ـ لا بأس من ذلك . فقابله بالآغا ثم أعده بنفسك الى هُنا . وانا انتظره واهيىء له غرفة الايوان . وواجه وحدك بقية الاغوات واجتهد في اقناعهم .

٧

الفداء

وفي اقل من ربع ساعة كان احمد بك والامير حسن في قاعة الآغا داود، كبير قواد الاكراد ، وكان الرجل على اهبة الخروج لتهيئة الهجوم الليلي . فانتظراه في السلاملك الى ان دخل عليهما ووقف امام حسن يتأمله . وكان طويل القامة عريض المنكبين كبير الشاربين مفتولهما تدل ملامحه على الجرأة والقسوة والغدر . فلم يترك له احمد بك فرصة للسؤال و بادره بقوله .

— ان رفيقي ابن اعز الاصدقاء واكبر الرجال مروءة في لبنان . وقد تطوع لايصال كتاب باسم سعادتك بعث به مولانا اسمعيل . وهو مستعد للاتفاق معنا على ما فيه مصلحتنا في هذه الحرب . لان السلطان أيده الله قد ولى سليمان باشا هذه الديار وعزل يوسف باشا فلا يروق مولانا المنلا ان نحارب مع اعداء الدولة ونؤيد عصيانهم .

قال هذا وناوله الكتاب . ففحص الآغا بتدقيق ختم الشمع المبصوم به ثم فضه وقرأه بصعوبة لانه لم يكن يحسن القراءة . وظل صامتاً . فكانت هناك دقيقة ظنها حسن دهراً . ثم التفت الى احمد بك قائلاً :

ـ ان سعادة المنلا له الرأي والامر ولكنه غير مطلع على حقيقة حالنا مع يوسف باشا . وانت تعلم ان علائف الجند متأخرة ثلاثه اشهر وانا نحارب لاخذ حقوقنا منه والا ارتد الجند علينا .

فتشجع الامير حسن وكان عالماً ان هؤلاء المسترزقة يحاربون مع من يجزل لهم العطاء فقال للاغا :

ـ ان في خزائن سليمان باشا اضعاف ما عند يوسف باشا من المال

فحدق الآغا في حسن مبتسماً في هزء وقال له :

ـ ان المال موجود عند كلا الوزيرين ولكن من يضمن لنا قبضه

فأجابه حسن بعزم

ـ انا رسول الامير بشير اليكم ووكيله في مفاوضتكم . فأعاهدكم على دفع مرتبات الجند عن اربعة اشهر وعلى دفع مرتبات الاغوات مضاعفة . وانا ضامن عهدي برأسي وسابقى رهناً عندكم الى ان تستوفوا المال حتى آخر بارة .

فاستدرك احمد بك وقال للآغا :

ـ ان الامير بشير ارسل لنا ابن عمه نفسه للاتفاق معنا . فحضرته الامير حسن ابن الامير حمود ابن الامير منصور الشهابي حاكم لبنان سابقاً وابن عم الامير بشير الحاكم الآن . وقد اضافني والده مع اسرتي شهرين كاملين واصلح شأني مع مولانا المنلا اسمعيل واعادني الى وظيفتي بتوسط الامير بشير .

ـ فالتفت الآغا الى الامير حسن وقال :

ـ اننا لا نثق بأحد من وزراء الدولة فهم لا يرعون لاحد عهداً . اما الامير بشير فهو مثال الصدق والمروءة فان كتبت عنه لنا عهداً بما عرضته علينا احجمنا عن

مساعدة يوسف باشا

فأجابه الامير حسن

- علي بالقلم والدواة

وكانت هناك على المنضدة دواة من نحاس لها ذيل مستطيل لحفظ الاقلام حفرت فيها الرسوم والآيات بخيوط فضية أنيقة . فجاءه احمد بك بها واخرج من ذيلها قلماً من قصب الغزار وناوله قرطاساً فكتب العهد ووقعه وسلمه الى الآغا وهو يعلم انه يخاطر بهذا العهد بحياته . فقرأه الآغا بتمعن ثم ناوله الى احمد بك وقال :

- اضمن

فوقعه احمد بك بختمه واعاده الى الآغا فوضعه في عبه ونادى الحاجب فوقف بين يديه في اقل من طرفة عين كأنه كان مختفياً وراءهم . فقال له

- الي بمرزوق و بشر

فلم تمض بضع ثوان حتى كان الساعيان منتصبين امام الآغا فقال لهما

- اذهبا الى الاغوات فاعلماهم ان لا خروج الليلة وان يوافوني صباحاً الى هنا . وانتما عالمان بكلمة الليلة

ثم التفت الى احمد بك وقال له :

- امرع الى حسن آغا واعلمه بما اتفقنا عليه . وكان عندي الآن مع كافة الآغوات . ولا بأس من أن تصحب معك الامير حسن لان عهد الامراء عندنا مقدس واصدق من عهد الوزراء .

فتنفس احمد بك الصعداء لسماحه للامير حسن بالخروج وكان خائفاً ان يبقيه عنده رهناً فيناله سوء من غدر الآغا . فخرجا وكان القمر قد توسط كبد السماء وبسط اشعته بسخاء على الفيحاء فتفضضت سطوحها وسطعت مآذنها واستنارت ازقتها وزواريبها ولمعت حراب الجنود المحتشدين في صحون قناقاتهم وامام سرايات اغواتهم وقوادهم وهم على اهبة الخروج لمباغتة المحاصرين . ولما مرا امام دار احمد بك تعجب

حسن من خلوها من الجند . وعلم منه انهم التحقوا برفقائهم استعداداً للهجوم المتفق عليه . فقال احمد بك لحسن

ـ ساذهب وحدي الى حسن آغا وهو وكيل خرج الاكراد وصديقي الحميم . فاصعد انت واسترح قليلا واخبر زوجتي اني ساعود بعد قليل .

قال هذا وقرع الباب قرعاً خاصاً ففتحت النافذة ثم الباب الصغير ودخل حسن فرأى سليم ينتظره على السلم . فتقدم وقال لحسن

ـ كنتُ في قلق شديد على سيدي . وكنت على وشك الخروج للتفتيش عليه لولا ان مولاتنا منعتني

فتبسم حسن وقال له :

ـ اذهب الآن فاسترح الى حين الحاجة اليك واذا عاد فهد فأيقظني

ـ واين غرفة سيدي

ـ لا اعلم . وساخبرك

ولما صعدا السلم وجدا آغا الحرم ينتظر في الرواق فقال لحسن :

ـ ان الخانم في انتظارك في القاعة

فترك الامير سليماً وتوجه الى البهو فرأى زوجة احمد بك جالسة تشرب النارجيلة فبادرته قائلة :

ـ خير ان شاء الله يامير حسن

ـ لا يجد من يدخل داركم سوى الخير . فقد اتفقنا

قال هذا وقص عليها تفصيل الاتفاق . فكانت تصغى اليه دون ان تنبث ببنت شفة . ولما انتهى من حديثه قالت له

ـ بارك الله في همتك يا بني .

ثم نهضت وقادته بنفسها الى غرفة ملاصقة للحرم لها باب على الايوان ونافذة مغطاة بالمشربية

فاستلقى حسن على الفراش ولم يخلع ثيابه .

واكتفى بوضع الغدارة والسيف بقرب الوسادة . ونام نوماً عميقاً حلم في اثنائه انه في سراي السلطان وان الهوانم يقمن بحراسته .

٭٭٭

وبينما كان غائصاً في احلامه اللذيذة اذ سمع صوت فتاة تناديه ففتح عينيه ورأى على ضوء القمر الداخل في الغرفة صبية من أجمل ما ابصرت عيناه وقد انحنت عليه وتوردت وجنتاها واسترسل شعرها وظهر عنقها المرمري لانها كانت بثياب النوم . وكانت تحدق به بعينيها النجلاوين مستغيثة . فبهت ولم يفهم كلامها وحسبها احدى الهوانم التي رآهن في الحلم . واذا بالفتاة قد قبضت على يده وجذبته وقالت له بلهفة:

— وحياة شبابك يا مير حسن . قم واسرع . لقد قبضوا على والدي !

فنهض حسن وسألها وهو لا يعي ما يقول والصبية ماسكة بيده تجذبه :

— من هو والدك ؟

— احمد بك الموره لي الذي انت في داره . اسرع وحياة والدتك سلمى !

وكأن اسم والدته العزيزة أطار احلامه . فسألها :

— وأين هو !

— في الطريق تعال فانظر

فتخلص حسن من يدها واسرع الى الخارج ثم تذكر سلاحه فسألها

— اين سيفي

واذا بالفتاة تسلمه سيفه فاستله ورمى بالغمد وهرول الى السلم . فلحقته الفتاة وصاحت به

— تعال هنا . وقادته الى نافذة صغيرة مطلة على الحارة واشارت بيدها قائلة

— لقدساقوه في هذه الطريق . ثم قادته الى السلم فتركها وقفز بضع قفزات فاصبح في صحن الدار . ثم تذكر خادمه فقال لها

– عليّ بسليم . فليلحقني

وهرول الى الباب فشاهد زوجة احمد بيك تصيح في الخدم :

– يا انذال . الحقوه . خلصوا سيدكم .

فمر حسن من امامها كالسهم . فصاحت به :

– وحياة والدك يامير !

واذا بابنتها تقتحم الباب لتلحق به فامسكتها والدتها واعادتها واسرعت فايقظت سليماً .

ركض حسن في الطريق فلم يجد فيها انسياً ولما بلغ الى آخرها سمع نباح كلاب فاتجه نحوها وابصر على ضوء القمر الكامل جوقة من الجنود في هرج ومرج فلحقهم وعرف انهم القابضون على احمد بك وكانوا عشرة يجرونه والرئيس وراءهم يستحثهم ويحرق بأسنانه ويسب احمد بك بكلام بذيء . فاقترب منه حسن وأطار رأسه بالسيف . فالتفت الجند فاذا باثنين من رفاقهم يتخبطان بدمائهما فأخذوا حذرهم وهجموا على حسن بالخناجر فرمى واحداً منهم . وكان حسن من اشهر لاعبي السيف في لبنان لا تخيب له ضربة . فأخذ يدافع عن نفسه ضارباً بسيفه ذات اليمين وذات الشمال الى ان احاط به الجند من كل جانب فأيقن بالهلاك . واذا باحمد بك يصيح به :

– «ظهرك والجدار» . ففهم حسن مراده وفتح له طريقاً الى بوابة حديدية كانت هناك ووقف فوق عتبتها تحمي ظهره وجزءاً من جسمه في دائرة الباب واخذ يهوي بسيفه على كل من يقترب منه فلم يبق من الجنود غير اربعة واذا بسليم يرمي احدهم بطعنة خنجر ويغمده في خاصرة الآخر . فتناول احد الجنديين غدارته وأفرغها في صدر حسن فخر صريعاً وكان على وشك ان يفرغ فيه طلقاً آخر لولا ان قبض عليه سليم بيد من حديد وانتزع منه الغدارة وافرغها في ظهره واسرع الى حسن فوجده جثة هامدة . فارتمى عليه يقبله ويبكي . وكان الجندي الباقي حياً قد هرب فقال احمد بك لسليم

ـ فك وثاقي لنحمله الى الدار

فبادر سليم وقطع الحبال بخنجره وحملا الامير حسن الى الدار . ولما بلغا به الطبقة العليا ألفيا صاحبة الدار وابنتها في انتظارهم فالتفت احمد بك الى زوجته وقال لها :

ـ لقد فدانا بحياته

واراد احمد بيك ان يعيده الى الغرفة التي كان نائماً فيها فقالت له زوجته

ـ لا بل نخبئه عندنا » فادخلوه غرفة ابنتها ومددوه على فراشها . فاسرعت والدتها وجست نبض الجريح ووضعت اذنها على قلبه . وكانت ابنتها تجهش في البكاء فقالت لها :

ـ حي حي لا تخافي

ثم كشفت عن صدره فرأت الرصاصة قد مرت بين الضلوع اليمنى وخرجت من تحت الكتف . فهتفت

ـ سليم ان شاء الله . سليم . هات العقاقير يا بنيه . » فاسرعت خديجه وجاءتها بصندوق صغير تكدست فيه العقاقير والمراهم فغسلت والدتها الجرح وضمدته وقالت لزوجها :

ـ علي باحمد لان العقاقير نفدت مني في هذه الحرب

فلما وقف الخادم بين يديها قالت له :

ـ اسرع كالطير الى الشيخ متولي المغربي فايقظه وجئني بهذه العقاقير

قالت هذا وكتبت له اسماء بعض الادوية . فتطوع سليم وقال

ـ لاذهبن معه فنعود سريعاً . وان افاق سيدي فاخبروه بسبب غيابي .

فالقى احمد بك يده على كتف سليم وقال له :

ـ يا لك من مخلص نحن مديونون لك بالحياة بعد الامير حسن وسيعلم سيدك انك مخلصه . وسينال هؤلاء اللئام جزاء خيانتهم . فقد وشوا بي الى يوسف باشا فارسل من يقبض عليّ فادركوني امام باب داري . ولكن الباشا لا يصبح حياً ان شاء الله

سار سليم بصحبة الكردي ولم تمضِ دقائق حتى صارا في قلب المدينة . واذا بالناس في هرج ومرج والجنود يتراكضون ويصيحون بعضهم ببعض . فتعجبا من ذلك وظنا ان اللبنانيين قد دخلوا المدينة.ثم صادف احمد صديقاً له من بني جنسه مسرعاً فامسكه وسأله :

— ما الامر ؟

— ما الامر ؟ يا حيف عليك وهل لم تدرِ بما جرى ؟ تعال معي فقد جئت في الوقت المناسب ، ربما قسم الله لك شيئاً مما بقي . فقد انتقض زعماؤنا على يوسف باشا ورفضوا مهاجمة الاعداء ليلاً لأنهم علموا ان في نيته ان يباغت المحاصرين، فان ظفر بهم عاد الى الولاية ودفع علائف العسكر والا لاذ بالفرار . فرفض الاغاوات الخروج قبل ان يقبضوا رواتبهم ورواتب جنودهم،فجمع الباشا تحفه وحمل خزينته وحاول ان يهرب ، فهجم القواد على الخزينة ونهبوها . وخاف الباشا ان يفتكوا به فهرب ببعض رجاله.ونحن الآن ذاهبون الى نهب سرايه واختطاف حريمه . ولي بينهن حورية لم يخلق الله لها اختاً في الجمال ، كنت متفقاً معها على الهرب بعد نهاية الحرب وقبض الراتب المتأخر . فهيا بنا ادلك على رفيقة لها اقل منها جمالاً واكثر مالاً، عندها من الحلى ما يغنيك العمر كله . . .

٨
المكافأة

ظل النهب والفوضى طول الليل في المدينة . فقد اطلق الجند أيديهم في التعدي على الأموال والاعراض وحرمة البيوت حتى ضج الدمشقيون واستولى عليهم الرعب، فلم يروا مخرجاً من هذه الحال سوى باستنجاد المحاصرين . فاسرع اعيانهم وألفوا وفداً قابل في الغلس سليمان باشا والامير بشير و بشرهما بهرب يوسف باشا ورجاهما

بالحاح دخول المدينة واعادة الامن الى نصابه . فامر الوزير الحجاب ان يعلنوا بشرى الانتصار، فعلا الهتاف ودوى الرصاص ودقت الطبول وعزفت الزمور وتحرك الجيش وانتظم صفوفاً يتقدمها القواد والألوية . وبعد ساعة كان سليمان باشا داخلاً عاصمة الامويين على رأس جيشه والجيش اللبناني حليفه ، وعن يمينه الامير بشير ووراءهما فرقة المشاة اللبنانيين يقودها الامير يوسف قعدان . وقد نالت هذا الشرف بناء على اوامر سليمان باشا نفسه، الذي أراد بهذه المناسبة اظهار اعجابه بالجيش اللبناني وبهذه الفرقة الباسلة التي كان لها الشأن الاكبر في رد هجوم العدو . فخفقت الراية اللبنانية البيضاء في طليعة الرايات وازدحم الدمشقيون لمشاهدة الموكب ولا سيما الجند اللبناني الذي طبق ذكره الشرق بشدة بأسه وحسن بلائه في الحروب . ولما شاهدوا حسن نظامه وما كان يتجلى في رجاله من قوة العضل والبطولة والشجاعة اخذوا يهتفون له بحماسة ، واستقبلته النساء بالزغاريد والرياحين وماء الورد .

وكانت سراي المدينة مزدانة بالاعلام واغصان الاشجار فدخلها الوزير بصحبة الامير بشير وقواد الجيشين . ولما استوى في القاعة الكبيرة أجلس الامير عن يمينه ، فتحولت الى الامير انظار المشايخ والعلماء والوجوه والقواد معجبين بهيبته ، وظن بعضهم انه الوزير لان سليمان باشا كان بجانبه كالصعلوك . ثم أشار الوزير بيده الى الحاضرين فساد السكوت واشرأبت الاعناق، فأمر بتلاوة الفرمان السلطاني الذي يخوله تولي حكم المدينة . فانحنى الجميع اجلالاً وتعظيماً وكبروا وهللوا . فقال لهم الوزير مشيراً الى الامير « هذا الامير بشير الشهابي ، من سلالة النبي صلى الله عليه وسلم ، ومن اخص رجال الدولة واعزهم لدى مولانا السلطان . فقد لبى أوامره وجمع هذا الجيش العرمرم لتعزيز كلمته وتنفيذ رغائبه . لذلك قد وليناه الحكم فيكم فاليه ترجعون في أغراضكم . وكل ما يقرره مقرر عندنا »

قال هذا وتنحى فأقبل الاعيان على الامير يهنئونه ويقدمون له الطاعة . فعين على بعلبك الامير جهجاه الحرفوش المتوالي، وارسل متسلماً جديداً الى اللاذقية ، واقام

مصطفى بربر على طرابلس ما عدا القلعة . ورأى الوزير ان يكافىء الامير فسمى ولده الامير قاسم والياً لجبيل وملحقاتها وخص الامير خليلاً ولده الآخر بولاية البقاع .

وما عتم ان وصل المنلا اسماعيل صاحب حماه مصحوباً بداود بك رئيس الاغوات الاكراد فقدما التعظيم لسليمان باشا وهنأا الامير بشير بالنصر وبالمكانة التي حازها لدى الوزير والدولة ، فرحب الامير بشير بهما وأثنى على المنلا اسمعيل لمؤازرته جيش الدولة وأبقاه حاكماً على حماه واضاف حمص الى ولايته . فشكر شكراً جزيلاً ثم قال له :

— ان لداود بك رئيس الاغوات غرضاً لدى سعادتك .

فتقدم رئيس الاكراد وأبرز الصك الذي كتبه له الامير حسن وفيه العهد بالنيابة عن الامير بشير بدفع رواتب الاغوات المتأخرة مضاعفة ورواتب اربعة اشهر للجنود الاكراد . فقرأه الامير بشير ملياً وسأله عن حكاية هذا العهد فأخبره الكردي بما دار في الليلة البارحة بينه وبين الامير حسن من الحديث وباتفاقهما ، بعد توقيع هذا العهد ، على الانضمام الى دعوة المحاصرين ورفض الخروج عليهم ، ثم انتقاضهم على يوسف باشا وارغامه على الفرار من دمشق . فأجابه الامير بشير :

— على الرأس والعين . سابرّ بهذا العهد كأنه عهدي لاني فوضت الى الامير حسن الاتفاق معكم بالنيابة عني . عليّ بالامير .

فدعا رئيس الاكراد احد غلمانه وامره قائلاً :

— اسرع الى دار احمد آغا الموره لي وقل له ان الامير بشيراً في حاجة اليك الساعة أنت وضيفك الامير حسن .

فذهب الغلام وعاد بعد نصف ساعة ، وكان رئيس الاكراد ما زال في حضرة الامير بشير ، فسلم وقال :

— ان احمد آغا يعتذر الى سعادة الامير وسعادتك عن الحضور لان الامير حسن مجروح جرحاً بليغاً وهو في حالة النزع .

وكان الامير حمود والد الامير حسن سامعاً فاسقط في يده وسأل الغلام

— وكيف كان ذلك ؟

وكان الغلام فصيح اللسان فأجابه

— وشى عدوٌ الى يوسف باشا باحمد آغا بأنه يأوي جواسيس لبنانيين ويتآمر عليه مع رؤساء الاكراد . فأرسل يوسف باشا شرذمة من الجنود فقبضوا عليه امام داره وساقوه اليه مكبلاً . وكانت الدار قد خلت من رجال احمد آغا لانضمامهم الى الجيش استعداداً لمهاجمة المحاصرين ليلاً ، فاسرع الامير حسن الى نجدته ورأى عشرة جنود يقودونه . فهجم على العشرة معاً وهوى بسيفه ثماني مرات فجندل منهم ثمانية الا ان التاسع رماه بغدارته فصرعه .

وكان الامير بشير يصغي الى الغلام مسروراً وكلما تقدم هذا في الحديث اشرأب عنقه واتسع حاجباه وانتفخ صدره . ولما انتهى هتف بحماسة :

— لا شلت يمينك يا امير حسن . هذه مروءة الامراء وبسالة اللبنانيين

ثم التفت الى الامير حمود وكان مطرق الرأس كئيباً فقال له على مسمع الحاضرين :

— نحن جميعاً فخورون بولدك ومهنئوك بهذا المجد الذي ناله بيتكم به . فقد ربح الامير حسن الحرب بجرأته وذكائه اكثر من ربحنا لها بجيوشنا .

فأجابه الامير حمود

— انا واولادي فدى الوطن وسعادتك . وقد فدانا الامير حسن بدمه

فتذكر الامير بشير كلمة حسن الاخيرة وأجابه :

— نعم لقد فدانا وفداها . . .

ففهم الامير حمود مراده وانصرف مع الغلام لمشاهدة ابنه . ولما دخل الدار اسرع احمد آغا للقائه وارتمى على عنقه معزياً مخففاً عنه وقائلاً :

— لا بأس على الامير حسن

فلم يجبه الامير حمود من شدة التأثر ولحقه الى الردهة فوجد على بابها خادميه

فهداً وسليما ينتحبان . فسألهما

— وهل مات ؟

فتدارك احمد آغا قائلاً :

— حي ان شاء الله ، سليم ان شاء الله

ولما دخل الامير حمود غرفة ولده شاهد القس انطون أمام فراشه يصلي وقد طأطأ رأسه حزناً وتساقطت الدموع على كتابه . وكانت زوجة احمد آغا جالسة الى الجانب الآخر من الفراش وهي سافرة تجس نبض حسن . فلما اقترب الامير حمود نظرت اليه وأشارت بالسكوت وهزت رأسها علامة التطمين، وسمع الامير حمود من وراء الستار صوت فتاة تنتحب فعلم ان ولده في خطر ، فخرج والعبرات تكاد تخنقه .

ولما جلس في القاعة رجا احمد آغا ان يأتيه بأمهر الاطباء والجراحين فأجابه الآغا برنة العجب

ـ ان الخانم امهر الاطباء وأحن الامهات . والامير حسن ولدنا وقد فدانا بدمه فنحن نفديه بمهجنا .

ظل الامير حسن يعالج سكرات الموت خمسة عشر يوماً والاب انطون وزوجة احمد آغا وابنتها ملازمين له ليلاً ونهاراً . وقد عفاه الامير بشير من حضور جلسات الديوان ليتسنى له ملازمة الامير حسن ومراعاةً لعواطف مشايخ دمشق لئلا يتنغصوا من وجود هذا الكاهن بينهم . ومع ان الغرفة التي كان فيها الامير حسن من داخل الحرم فقد أذن له احمد آغا في الخروج والدخول والمكوث ما شاء من الوقت ، واستأنست به زوجته وسمحت لابنتها خديجه بالظهور امامه سافرة لتثبتها من فضيلته وطيب عنصره . ولم تكن الفتاة تقوى على الابتعاد عن الامير الجريح فكانت تخدمه بارتياح ، ولا تخجل من التصريح باعجابها به وعطفها عليه . وما لبثت ان تملكت قلبها عاطفة شديدة حولت اعجابها الى حب خالص رأت فيه والدتها نتيجة طبيعية لمعرفة الجميل والحنان ، وهي فتاة في الثامنة عشرة خالية القلب رقيقته سريعة

التأثر. فكانت تلازم الامير نهاراً وعيناها لا تفارقانه لحظة، وتلازمه ليلاً في احلامها الذهبية. ولما تحققت والدتها من أمرها لم تقف حاجزاً امام هذه العاطفة الشريفة بل أخذت تتمنى لو شفي جريحها لتزف اليه ابنتها ووحيدتها عربوناً لمعرفة الجميل نحوه ونحو بيته فتصبح خديجة اميرة لبنانية — والامارة في لبنان هي الكل في الكل — وترتبط علاقات الاسرتين برباط القرابة والمصاحة. وكانت الخانم تجهل كغيرها ان اغلب الامراء الشهابيين قد انتحلوا الدين المسيحي، لانهم لم يكونوا يتظاهرون به. وشعرت الفتاة بموافقة والدتها فاسترسلت في حبها واخذت تجاهد في الوصول الى قلب الامير، وللمرأة مهارة غريزية تضمن لها النجاح في اكتساب ميل الرجل، ولا سيما اذا كان في حالة الامير حسن وامامها متسع من الوقت لاحاطته بظواهر اللطف والعطف وابعاده عن كل تأثير خارجي.

وكان كلما تقدم حسن الى الصحة قويت في قلب الفتاة الآمال فتبثها اليه بأنواع شتى تحت ظواهر السرور بشفائه. ولم ينتبه حسن في بدء الامر الى ما ترمي اليه فكان يعزوه الى الشفقة الطبيعية في المرأة. ولكنه لم يخفَ على القس انطون، وقد خبر القلوب، ما كان يتدفق من وجه الفتاة وحديثها، فبدأ يعذرها ثم اخذ يتخوف من ان تتوصل الى اجتذاب قلب الامير ومحو ذكرى الاميرة دلال خطيبته. وكان يردد في قلبه المثل اللبناني القائل: «بعيد عن العين بعيد عن القلب» ويعلم ما لجمال هذه الفتاة الساحر ونضارتها الغضة وحديثها الرقيق ومؤانستها للجريح وتفننها في التودد اليه من التأثير فيه وهو في دور النقه عائد الى الحياة فاتح قلبه من جديد للآمال، مطلق لمخيلته العنان لتسرح بانشراح في فضاء العمر الطويل المفتوح بابه امامه. فصمم الكاهن على رفع الامير بأقرب وقت من هذا المحيط الخطر، واخذ يسعى الى ذلك حثيثاً.

وفي صباح أحد الايام دخل الاب انطون على حسن مفتر الثغر مشرق الوجه، فلاحظ حسن ذلك وانتظر خبراً ساراً وحدق الى استاذه سائلاً بعينيه فبادره الكاهن.

— ان سعادة الامير بشير يهدي اليك سلامه الخاص وسيشرف بعد قليل الدار

لعيادتك ، و بصحبته الامراء والدك وعمك والامير يوسف قعدان . ولم يتم الكاهن حديثه حتى دوت اصوات الأهازيج في الحي الصامت فاهتزت جوانبه . فقال القس انطون لحسن :

— هؤلاء رجالك يامير حسن جاؤوا يهنئونك بالسلامة .

وعلا صياح الرجال وكانوا يهتفون :

— فليحي اميرنا الكبير . فليحي حاكمنا الامير بشير . فليحي بطلنا الاميرحسن وعند نهاية كل هتاف كان ينطلق البارود وتقرع الطبول وتمتزج تراويدالرجال بأصوات الزمور القربية،حتى خيل للسامعين ان اركان الحي الصغير تتداعى . ثم ساد سكوت عميق عقبه وقع حوافر الفرسان . فأخذ الحاضرون يتهامسون بينهم قائلين :

— الامير بشير ! الامير بشير !

واذا بالامير بشير نفسه يصعد السلم المؤدي الى الطبقة العليا من الدار يتقدمه احمد آغا و يتبعه الامراء حمود والد الامير حسن والامير حيدر عمه والامراء اسعدومنصور ومراد اخوته ووراءهم الامير يوسف قعدان مزاحمه على يد الاميرة دلال،وجمهور غفير من الاعيان وضباط فرقة الامير حسن . فاندفعت الزغاريد من نوافذ الدار ونثرت الورود فوق رؤوس القادمين حتى دخل الامير الردهة وجلس في صدرها ، وكانت روائح العطور والبخور وماء الورد قد ملأت جوانبها الواسعة . و بعد ان قدمت له الحاشيته القهوة والاراكيل والغلايين الطويلة نهض قائلا :

— علينا واجب نتممه نحو الامير حسن .

وأشار الى الامراء حمود وحيدر و يوسف قعدان فتبعوه الى غرفةالامير حسن. فلما رآهم حسن داخلين عليه استوى على فراشه وهم بالنهوض ، فاوقفه الامير بشير باشارة من يده ، وذهب بنفسه اليه واعطاه يده لتقبيلها قائلاً :

— العوافي يا بني . العوافي يامير حسن . لقد كان سروري وسرور الامراء والجيش بتعافيك معادلاً لسرورنا بالاعمال الباهرة التي أتيتها في هذه الحرب . فنحن

نهنئك ونهنىء انفسنا بك

فرفع الامير حسن عينيه اليه شاكراً متمتماً بعض كلمات،فقاطعه الامير بشير قائلاً :

— ومكافأة لك وتشجيعاً لغيرك قد جعلناك مع الامير يوسف قعدان رئيسي حراسنا . وستكونان كلاكما ولدين خاصين لي اعتمد عليكما في اكبر مهمات الوطن . وقد حكمنا لك بربح الرهان من الامير يوسف قعدان فتنازل لك عن الاميرة دلال . وسا كون انا اشبينك والست الكبيرة اشبينة الاميرة دلال . اليس كذلك يا امير يوسف ؟

فلم يكن من الامير يوسف الا ان تقدم من الامير حسن وانحنى عليه وعانقه قائلاً :

—بارك الله لك يا أخي الصغير بالاميرة دلال . لقد وهبتك اياها فوهبتك من هو أعز من نفسي !

فرفع الاب انطون يديه فوق رأسي الاميرين هاتفاً :

ـ الرب يبارككما يا بطلين . كونا دائماً أخوين وساعدي لبنان القويين .

فدوى المكان بالهتاف وطفح السرور من قلب الامير حسن وشعر بقوة غريبة قد دبت في جسمه فنهض من فراشه هاتفاً :

— هيا بنا الى اعبيه !

ولكنه لم يكد يخطو خطوتين حتى خارت قواه وهوى كالسكران . فخرجت زوجة احمد آغا من خبائها كلمح البصر وهرولت نحوه صائحة :

— لقد قتلتم الولد !

وتلقت حسن بيديها فارتمى بين ذراعيها كالميت . فقطب الامير بشير حاجبيه الكبيرين وخرج دون ان ينبث ببنت شفة . وانتظر في القاعة مع الامراء نتيجة هذا العارض . ولم يبرح الدار حتى طمنه احمد آغا ان الحادث بسيط وان الامير حسن قد اغمي عليه من شدة التأثر .

والحقيقة ان جرحه انفتح وعقب ذلك حمى شديدة جعلت حياته في خطر عظيم

***

لم يهدأ بال الامير بشير بعد هذا الحادث . فقد نشبت ثورة في دمشق على أثر تعيين سليمان باشا لرجل يدعى الكنج أحمد متسلماً عليها . كان المذكور تحصيلداراً في عهد يوسف باشا وعامل الاهالي بالقسوة والظلم ، فكرهوه . لكنه رشا المنلا اسماعيل بالمال فتوسط له لدى الوزير فأعاده الى وظيفته . ولما علم الدمشقيون بذلك طلبوا من الوزير عزله فلم يلبهم ، فثار ثائرهم وعمدوا الى العصيان وهجموا على دار المتسلم ليفتكوا به ، فحال الجند اللبناني دون بغيتهم . فتفاقمت الثورة واندلعت نيرانها في كل انحاء المدينة وانضمت عساكر يوسف باشا من غير الاكراد الى الثوار. فاحتمى المتسلم في القلعة وأغلق ابوابها وصوب المدافع على المدينة . فاضطرب سليمان باشا واستدعى الامير بشير على عجل وطلب اليه قمع الثورة بقوة الجيش اللبناني بحجة انه لا يمكنه نقض عهده للكنج أحمد . فأجابه الامير :

– لا يليق بنا ان نحارب الاهالي ونفتك بهم وقد انقضوا على يوسف باشا لظلم المتسلم وانحازوا الينا وساعدونا على طرده . ورأيي ان ننصفهم ونرضي الكنج احمد بوظيفة اخرى في غير دمشق . ففوض الوزير التدبير الى الامير فعزل الكنج احمد وعينه متسلماً على القدس واقام مكانه درويش آغا الذي كان محبوباً من الدمشقيين . وعين أحمد آغا الموره لي وكيلاً له مكافأة له على مساعدته للجيش اللبناني وعنايته بالامير حسن .

ثم رأى الامير في بقاء عساكر يوسف باشا في المدينة خطراً دائماً عليها وعلى سلامة الدولة فدفع لهم رواتبهم مع علاوة شهر آخر ودفع لرؤسائهم ضعفي ما يستحقون ، حسب عهد الامير حسن لكبيرهم ، وفرقهم مع جنودهم على المدن الواقعة في حكم سليمان باشا ، فارضاهم وأخضعهم وأمن شرهم . فهدأت الثورة وخلا بال الوزير من هذه المتاعب واستتب له الامر في كل انحاء ولايته من حدود حلب حتى وادي النيل .

ولما كان كل ذلك عائداً الى مساعدة الامير بشير له وحسن تدبيره ، خلع الوزير عليه وعلى اولاده وقواد جيشه من امراء ومشايخ الخلع الفاخرة واطلق يده في حكم ولاية لبنان وخفف عنه الاموال ، فكان للبنان فترة من الراحة والرفاهية والعز لم يسبق له الفوز بها منذ عهد الامير فخر الدين المعني الكبير . وعظم شأن الامير بشير في لبنان وسوريا ومصر وأخذ الحكام يخطبون وده . واصبح اسم الجيش اللبناني مرادفاً لاعظم قوة في سوريا .

ولما سمع محمد علي باشا وزير مصر بهذه الامور رأى في الامير بشيرا كبر مساعد له على تدخله في شؤون سوريا واقوى حليف له على الدولة العثمانية المتفككة الاوصال ، فصمم على اكتساب صداقته وبعث اليه بالتهانيء الودية والهدايا الثمينة .

٩

الاغواء

ظل الامير حسن شهرين كاملين يصارع الموت . وكثيراً ما كان يغيب عن الحس وتحمله مخيلته الى عالم الاحلام والاوهام، فتظهر له، وهو تائه في ظلمات الغيبوبة، فتاة محاطة بهالة من نور فضي تبتسم له . وما لبث ان تحقق ان شخص هذه الرؤية المحبوبة كثير الشبه بالصورة التي رآها في نافذة دار عمه ، لكنها هيولية . فهل أمامه ملاك بلا جسم ، أم صورة محمولة على أجنحة المخيلة ، أم هي دلال بعينها وقد نحل عودها ورقت ملامحها وباتت سقيمة حزناً عليه . فقد كانت ابتساماتها تشف عن كآبة عميقة تحاول اخفاءها عنه . والغريب من أمرها انها مع كثرة ترددها عليه ، لانها كانت موضوع كل احلامه ، وتوددها اليه ، لان نظراتها كانت تعبر عن تعلقها الشديد به ، كانت ملازمة السكوت . ومع ان حسن كان لايفتر عن توجيه الاسئلة العديدة اليها عن حالها وثباتها على عهده ويدعوها مراراً للاقتراب منه ليشكر لها اخلاصها ، فلم تكن تجيبه بسوى ابتسامة في طرفها شيء من المرارة . فهل اصبحت

خطيبته في عالم الاموات فتهبط من سمائها لعيادته ومؤاساته ؟

وفي أحد الايام وقد زادت هواجسه واشتد اضطرابه من احلام مزعجة ظهرت له بابتسامتها الملائكية ، فزال انقباضه وانشرح صدره وأخذ يشكو اليها ثقل المرض الذي يقعده عن اللحاق بها، فرمقته بنظرة وداد أثارت في صدره اضطراباً وشوقاً، فبسط اليها ذراعيه متوسلاً ان تدنو منه فيعانقها ويبثها أحاديث كثيرة لذيذة أعدها لها في اثناء مرضه الطويل ، وقد حفرها على صفحات قلبه لانه لا يتمكن من الكتابة . لكن دلال ظلت صامتة بعيدة ورمقته بنظرة يأس كأنها لم تعد من الاحياء . فزاد هذا المنظر في حسرته وأخذ يصيح بلهفة :

– دلال ! دلال ! لم هذا النفور، لم تعامليني بالصد والسكوت ؟ انك لتزيدين آلامي ألماً وضيقي ضيقاً ! ألم تصبحي خطيبتي شرعاً ؟ ألم أسجل حبي لك بدمي ؟ أو أن روحك فاضت حزناً علي ؟ دلال ! دلال !...

واذا بيد ناعمة تمر على جبينه الملتهب ، وتمسح العرق المتصبب منه ، وصوت خافت يحادثه برقة :

– حسن ! حسن ! لم هذا الاضطراب . لم هذا العذاب ؟...

ففتح عينيه وشاهد خديجه فوق رأسه ، وقد انحنت عليه وبلت خديه بدموعها. فهدأ روعه ، وجال بنظرة تائهة في الغرفة الواسعة . ثم سألها :

– أين هي ؟ لم تهرب مني ؟ هل ماتت ؟

فأجابته الفتاة وقد تهدج صوتها تأثراً :

– أنا خديجة ياحسن . لا أحد هنا غيري . دلال حية لكنها بعيدة من هنا . اما أنا فلا افارقك لحظة ، ولن افارقك الى الابد . حدق اليّ . ارمقني انا ايضاً بنظرة عطف ، اجعل لي أنا أيضاً مكاناً صغيراً في فكرك وقلبك ...

فحول حسن نظره الى الصبية وهو لا يفقه ماتقول . فعادت تناجيه .

– ألم تشعر يا حسن بلهفتي عليك وتألمي لحالك . انظر كيف شحب وجهي

وغارت عيناي من البكاء والسهر عليك . ألا تكافئني على كل ذلك بنظرة واحدة ودودة ؟ ...

تأثرحسن من لهجة هذا العتاب ولاحظ للمرة الاولى في عيني ممرضته الدعجاوين العميقتين شيئاً غريباً يجتذبه . فقد كانتا ملتصقتين بعينيه تعبران عن حنان وألم وهيام لم يقرأه من قبل في عيني فتاة غيرها . فتسربت الى صدره ، وهو في هـذه الحال من الضيق والعزلة ، عاطفة الشفقة ومعرفة الجميل نحو هـذه الفتاة المخلصة وأجابها بلطف :

— اني شاكر لك يا خديجة ، من صميم جوارحي ، مؤاساتك وخدماتك . وثقي اني لا انسى ، ماحييت ، افضالك علي .

— لا فضل لي عليك ، يا عزيزي حسن ، ولا أروم منك سوى العطف علي واشراكي بجزء صغير من حبك لدلال . أنا لا أرمي الى نزعها من قلبك ولا التقدم عليها ، فهي خطيبتك واحق مني بمودتك والسابقة الى احتلال فؤادك . هنيئاً لها ... آه ، كنت ، قبل دخول الامير بشير الى هذه الغرفة ، اعلل النفس بأن أكون لك دون سواي . ولكني سمعت العهد الذي قطعه لك الامير على دلال ، وشاهدت فعل اسمها فيك . كنتَ لا تقوى على الحراك ، فنهضت بأعجوبة لتلحق بها ... أسمعتَ في تلك اللحظة صوت شاة تذبح ؟ نعم ، لقد شعرت حينئذ ان خنجراً يغمد في قلبي . فصحت من الألم وأغمي علي مثلك ... ولما افقت تجلى لي مصابي بكل روعته وكدت افقد رشدي فأهجر هـذه الغرفة ودار أبي ومدينتي وأهيم على وجهي في الصحراء ، لعلي أنساك ... ولكن والدتي خففت عني وأكدت لي انه لا يقوى شاب على صد فتاة مخلصة له شغوفة به ، واني سأحل يوماً في قلبك بقرب دلال وأشاطرها قسماً صغيراً من حبك . اهنأ بها ، يا حسن ، فهي أميرة وابنة عمك وربيبة صباك وصاحبة عهدك ومالكة فؤادك . لكن لا تنسني أنا ، فاني لا أقل عنها تعلقاً بك وأملاً فيك ، ولا تقدر قوة في الارض على ان تقطع أمراس هذا التعلق

والأمل ... أنا لا أطمع في ان أكون شريكة حياتك الوحيدة ، بل حسبي ان أكون خادمة لك ولها ، فأبقى بقربك ماحييت ...

وقفت خديجه عند هذه الكلمة وقد تغلب عليها الحزن وخنقتها العبرات ، فانتفض صدرها وسالت دموعها على جبين حسن . فرق لها وتحقق انها واقعة في هواه ، وجاهلة انه مسيحي لا يجوز له ان يقسم قلبه بين زوجتين . انما لم يقو على صدمها بتلك الحقيقة بل تركها معلقة بحبال الامل . ولا سيما انه في مرضه وعزلته كان في حاجة قصوى الى عذراء حنون تؤانس وحشته وتبثه عواطف رقيقة تنزل على جرحه كالبلسم . فلما شاهدها تجهش في البكاء ، وأحس بدموعها السخينة تتساقط على جبينه ، دبت في صدره عاطفة غريبة قوية فيها شيء من الشفقة وكثير من ميل فجائي ، فطوق نحرها بذراعه ومسح دموعها بقبلتين حارتين وقال لها :

— لا تبكي يا خديجة ، فانا مائت ، ولا يورثك تعلقك بي سوى الحسرة الابدية . أبقي نحيبك الى بعد موتي ولا تنسيني . بل رافقي جثتي الى اعبيه وشاركي دلال ووالدتي في حزنهما علي . فأنام في قبري متعزياً اني ربحت في حياتي عطف فتاتين جميلتين ، رقيقتي الشعور ، شديدتي الاخلاص . . .

وقبل ان يتم حسن كلامه قاطعه صوت الخانم ، التي اقتربت منه وقالت له بحنان الوالدة :

— لا بأس عليك ، يا بني ، فقد زال عنك الخطر وتماثلت الى الشفاء . وان شاء الله لا ينقضي هـذا الاسبوع حتى تنهض معافى ، فتبدأ حياة جديدة هنيئة تنسيك كل هذه الآلام .

ثم التفتت الى ابنتها وقالت لها :

— ولكن يا خديجة لا تقلقي باله بالشكوى ، ودعي قلبه مستريحاً ، لان عليه ، بعد الله ، المعول في شفائه .

***

لم تكُ خديجه صادقة لما طلبت من حسن أن يشطر قلبه بينها و بين دلال . فالمرأة تجود باعز ما لديها وتضحيه الا حبها ، فلا ترضاه الا كاملاً . هي تخضع بارتياح لمن تهواه ، وقد تجد لذة في استبداده بها ، وترضى بان يستذلها و يستعبدها على شرط ان تستعبد هي قلبه . ومع انانيتها وضعفها قد طبعت في معالجة ميل الرجل على المخادعة والتدليس . فان اخلصت له الحب لا تصدقه دائماً القول .

تحققت خديجه من هدس حسن بدلال ان هذه متسيطرة على قلبه تسيطراً تاماً وانها وحدها تشغل افكاره وعواطفه،فكانت كلما أملت في اجتذابه اليها وهو في حالة الوعي ، عادت فخبرت بمرارة ، وهو في حالة الغيبوبة ، ان حبه لابنة عمه ما زال صحيحاً . فتظاهرت في بدء الامر انها راضية بان تكون الثانية في حبه اي ضرة ،فلا يأخذ حذره منها ، و يتركها تحتل قلبه رويداً رويداً ، حتى اذا تمكنت منه أزاحت مزاحمتها . فجاهدت اولاً في اكتساب عطفه من باب معروفة الجميل لما تبديه نحوه من الخدمة والملازمة في مرضه . ولما بكت وحملته الشفقة على ان ينفحها بقبلتين في عينيها انتعشت آمالها وأبدت من السرور بهذا الفوز الجزئي ما جعل حسن يعتقد بحسن طويتها

وفي اوائل الربيع من تلك السنة دخل حسن في دور النقه ، واحمد آغا المورهلي ما زال منهمكاً بمهام وظيفته الجديدة ، لا يأوي الى البيت الا في الليل . فاتسع المجال لزوجته وابنتها للتآمر على اكتساب قلب الامير حسن ، ومن وراء ذلك اكتساب القابه وثروته ومنزلة اسرته ، فعمدتا الى تمثيل رواية توقعه في شراك خديجه فتصبح زوجته واميرة شهابية لها جاه الامراء ومكانتهم في لبنان . فكانتا تحيطانه بشبكة غير منظورة من مظاهر العناية والمودة لتنسياه بيته واهله وخطيبته فيستعيض عنهم بخديجه و بيتها واهلها . فخديجه شقيقته وصديقته وحبيبته المخاصة ، ووالدتها امه الرؤوم ، وهو ابن البيت ورب الدار وصاحب الامر والنهي فيها وفي اهلها

ولكن الحب الراسخ في القلب لا يقلع كالشتل اليابس ، ولا ينزل في صدر

الرجل حب المرأة الغريبة كالجمرة في الجوارح ، انما يزرع وينبت في وقته ويتأصل مع الزمن . فلما استبطأت زوجة احمد آغا وقوع الامير في هوى ابنتها لجأت الى السحر والتعاويذ ، وكانت أمهر نساء عصرها في هذا الفن وقد درسته في صباها على مربيتها المغربية مع صناعة الطب وتحضير العقاقير وتقطير العطور . وكان حسن قد قص عليها وعلى ابنتها حكاية عقد الياسمين الذي اهدته دلال له في الجنينة ، فانتهزت الخانم فرصة احدى غيبوباته ونزعت من صدره الذخيرة التي كان يحفظ فيها العقد واحرقته في ثلاث مجامر أوقفت خديجه في وسطها لتحول اليها القوة السحرية الكامنة فيه . ثم اشارت عليها ان تدخل حالا على الامير وتجلس بقربه فيشتم منها رائحة الياسمين ويندس حبها في قلبه . ولما اقتربت الصبية من حسن تنسم تلك الرائحة بانشراح وقال لها متأوهاً :

— ما أعذب هذا العطر ؟

— انه عطر الياسمين

اني شديد الولع بالياسمين ، ولي فيه ذكريات عزيزة لذيذة . . .

ثم اخذ يقص عليها للمرة العاشرة حكاية اجتماعه بدلال في الحديقة وما تبادلا تحت ظل الياسمين من رقيق الحديث وكيف تعاهدا على الحب والزواج . . .

فاكفهر وجه الفتاة لبلوغها عكس مرامها وخرجت تشكو الى والدتها سوء طالعها، فأكدت لها الخانم ان مفعول هذا السحر بطيء لكنه أكيد . ولزيادة تطمينها قصت خصلة من شعر خديجه وضعتها في الذخيرة بدلاً من الياسمين ثم خاطتها وأعادتها الى صدر حسن . فابتهج الامير لاستعادته الذخيرة العزيزة وكان يظن انها فقدت ، وضمها الى شفتيه مقبلاً اياها بحرارة تقرب من العبادة وبلها بدموع الحنين الى خطيبته ووطنه . فأسقط في يد الفتاة وكادت تيأس لو عرف اليأس الى قلب المحب سبيلاً .

لكن خديجه رأت ان في مواهبها الطبيعية والمقتبسة ضامناً اقوى من السحر للوصول الى غرضها. فقد حباها المولى جمالاً فتاناً والحاظاً جارحة وصوتاً ساحراً فضلاً

عن مهارتها في الغناء والعزف والرقص . فلم لا تخرج من جعبتها هذه الاسهم الحادة وتهاجم بها قلب الامير وهو في عزلة عن سواها و بين يديها النهار والليل ؟

لم تكد هذه الفكرة تطرق ذهنها حتى استحسنتها ووطنت النفس على العمل بها . فدخلت في صباح اليوم التالي غرفة حسن وشاهدت بشائر الصحة تلمع في وجهه الصبيح وعلامات الانبساط تلوح في حديثه . فاظهرت له ما يخالجها من السرور لرؤيته على هذه الحال وقالت انها تحسب هذا اليوم عيداً لاهل البيت يجب ان تقام فيه الافراح لشفاء عزيزهم . ثم استأذنت والدتها وجاءت بعود بديع الصنع ، دقيق الحجم رشيق العنق ، مرصع بالاصداف المتلألئة ومحلى بالنقوش العربية الانيقة ، فألقت ذراعه على كتفها الأيسر ، واحتضنته ، وضمته الى صدرها ، وأحنت رأسها عليه فعانقته بحنان ، لان على نغماته الشجية قد علقت آمالها وحياتها ، وأخذت تمر على أوتاره بأناملها الناعمة بخفة وبراعة لم يعهدها حسن بغيرها . وكان شديد الميل الى اللهو والغناء وقد حرمه زمنا طويلا ، فطابت سريرته وهزه الطرب وأخذ يرافق العود بصوته الرخيم وقد زاد رقة لضعف قواه وصدره . فأبدت المرأتان اعجابهما وزاد الامير سروراً . ثم أشارت الخانم على ابنتها أن تنشده شيئاً ، فتدللت قليلاً ولما الح عليها حسن رمقته بنظرة عتاب لم يفهمها لاول وهلة ثم جادت بصوت صاف عذب اخذ بمجامع قلبه وغنت موالا لطيفاً محزناً اتبعته بهذين الشعرين :

كعصفورة بيد طفــل يهينها ... تقاسي عذاب الموت والطفل يلعب

فلا الطفل ذو عقل يرق لحالها ... ولا الطير مطلوق الجنـاح فيذهبُ

وكانت تعيد كل شطر من هذين الشعرين بلهجة مختلفة قليلاً عن الاولى وتودع كل كلمة من قوة الشعور ورقته بين صبابة ولوعة وتألم ولهفة ما فعل في الفتى فعلاً غريباً حتى أنه لم يعد يطق أن يحدق اليها . فتحقق شدة هيامها به وفهم انها تعنيه بالطفل الذي يلهو بقلبها ولا يعبأ بعذابها ، أما هي فعالقة به تفضل مقاساة آلام الصد على ان تفارقه .

فبدت على حسن أمارات الانقباض ولاحظت الخانم ذلك فزجرت ابنتها قائلة :

— مالنا ، يا بنيه ، وهـذه الاشعار المحزنة أنشديه ما يشرح صدره و يفتح قلبه للحياة ، كبعض الادوار المصرية التي تعلمتها على عبده المصري الذي لجأ شهراً الى دارنا ، ففيها من الخفة ورقة النظم ما يسري عن الانسان . فأمن حسن على هذا الاقتراح ليزيل ما داخله من الاضطراب والح على خديجه ، فابتسمت له ابتسامة معناها انها لا ترفض له طلباً مهما عز عليها ، ووقعت على العود دوراً غرامياً لطيفاً رافقته بصوتها المطرب ، فانتعش حسن وثمل وأحس ان لنبرات هذا الصوت الساحر صدى يتردد في صدره وان حب هـذه الفتاة يسري في ضلوعه كالخمرة ، فكان يلتقط من فمها المتورد المعاني الغرامية كأنها قد نظمتها له دون غيره ، و يشعر انه واقع لا محالة في هواها ، وخيل له انها اخف النساء روحاً وافتنهن حسناً واحراهن بحبه ، فلا بد له من ان يفسح لها مجالاً في قلبه بقرب دلال خطيبته .

اما كيف يوفق بين هذا العشق وغرامه الاول فلا يعلم ، انما ما ضرّه لو استحل كليهما . الم يخلق الباريء المرأة للتسلط على قلب الرجل ، اليس هو واهب هـذه الالحاظ الجارحة ومكون هذا الجسم البض الناعم ؟ الم يعطها هـذه القوة السحرية لتجتذبه وتستأسره ؟ لقد أحال المولى عليه في حياته غادتين من أبدع ما صور ، وقد تعلقتا بأهدابه وعلقتا آمالها عليه ، فكيف يقوى على صدهما . دلال هي اللطف والذوق والنبالة والذكاء والرزانة والعفاف ، وقد بادلته الحب وعاهدته على الزواج ، ولن يتركها ما دام فيه رمق من الحياة . اما هـذه الفتاة فهي الغرام بكل ما فيه من سلوى ولذة : جمال وغنج وطرب وسحر ، وقد جعلته مدار حياتها وشعورها وسعدها . فهل يضن عليها بعاطفة ؟

كانت هذه الافكار تجول في صدر حسن وهو تحت تأثير رنات صوت خديجه وعزفها . ولما سكتت افاق لنفسه كمن يفيق من حلم لذيذ وشعر بامتعاض ان هذا

الحلم الذهبي صعب التحقيق . أترضى دلال وهي الاميرة الابية وصاحبة الاسبقية ان يجزىء قلبه بينها وبين خديجه وان رضيت هذه ؟

ولم تكن المبادىء المسيحية قد رسخت تماماً في قلوب الامراء الشهابيين لحداثة عهدهم بها وتعودهم على نيل كل رغائبهم دون مانع او رادع ، سوى التقاليد العائلية والقوة المسلحة . فان لم يعبأ بالشريعة المسيحية التي تمنع من تعدد الزوجات فهل يتحدى شرع الامراء الذي لا يسمح له بالتزوج من غير الاميرات . فكيف يقترن بكردية غريبة لا تناسبه في النسب والمذهب والتربية ؟

ولكن عين الحب عمياء . فاذا سطت الشهوة على عقل المرء حجبت عنه الحقيقة واسكتت فيه صوت الضمير والشريعة . شعرت خديجه بفوزها وانها اصبحت اقرب الى قلب حسن من كل وقت ، فلم تعد تدع فرصة تفوتها دون ان تعيد الكرة عليه . فكانت كلما آنست منه الرغبة تناولت العود المحبوب ـ الذي تآمر معها على اكتساب عطف الامير ـ وأثارت هيامه بها كما تثير أناملها أنين تلك الأوتار ولعبت بقلبه كما تلعب بها . وقد حملتها الرغبة في الوصول الى غرضها بأسرع وقت على ان تطرح جانباً الادوار المحتشمة التي تعرفها وتستخرج من ذهنها كما حفظته في غرف الحريم وقاعات الحمام من الاغاني السمجة المحركة للشهوة . ولما رأت ما صادفت لديه هذه الادوار الخلاعية من الاستحسان وما زادته من الولع بها ، عمدت الى التهتك امامه في ملابسها وحركاتها وأحاديثها ، ورأت باغتباط قوة تأثير ذلك فيه ، وقد اعتزل شهوراً المجالس وحرم رؤية غيرها من النساء . فتشجعت ومضت في ذلك الى أبعد ما امكنها . وفي احد الايام وقد وثقت من كلفه بذلك ، رمت بالعود جانباً وتناولت من احدى زوايا القاعة رقاً صغيراً ذا صنيجات دقيقة ونهضت ترقص على توقيمه برشاقة وغنج وتهتك خلبت لب الامير وأطارت صوابه . فرمى بعمامته بين قدميها المتنقلتين بخفة على السجاد الحريري وطارحها الغرام بالفاظ قذرة كأنها احدى بنات الهوى . فلم يبدُ على وجه الفتاة ادنى احمرار الحياء بل طفح سروراً وسددت الى الامير نظرات غرامية جن

بها . فأقسم لها انها مليكة فؤاده وانه لا يرضى بسواها زوجة . فما كان منها الا ان اقبلت ، على مرأى من والدتها ، وطوقت عنقه بذراعيها العاريتين وطبعت على شفتيه قبلتين الهبتا صدره ، واعلنت انها له للحياة . فهتفت والدتها :

— هنأكما الله يا ولدي وأتم بغيتكما . وسافاتح زوجي هذا المساء بامركما ولا إخاله الا راضٍ عن زواجكما لما للامير حسن وأهله من المنزلة عندنا ...

ومنذ ذلك الحين اصبح حسن العوبة بيد خديجه ، فأخذت ، باشارة من والدتها، تتحاشى مجالسته ليزداد شوقاً اليها ، ولم تعد تقابله الا بحضور والدتها التي افهمته ان زوجها مرتاح من ميله الى ابنتهما و ينتظر ان يطلبها رسمياً منه بأقرب وقت . فأجفل حسن من هذه المفاجأة ، مع انها نتيجة منتظرة لما فاه به من الوعد ، ولكنه لم يكن يتوقع ان تسير الامور على هذه السرعة نحو الرسميات . فاستمهل والدتها ريثما يستحضر من بيت ابيه مالاً كافياً يقدمه مهراً للفتاة و ينفق عليها بسخاء بعد ان تصبح عروسته .

وأخذ حسن يفكر جدياً في حاله وما سيجره عليه هذا القران من استياء والديه والامير بشير و بقية الامراء والمعارف . نعم ان هذه الفتاة فتانة ، وقد يجد في عشرتها من البسط والتنعم ما لا يجده في ابنة عمه المحتشمة الأبية الرصينة ، ولكنها كردية مسلمة فلاحة — لان الامراء كانوا يعدون العامة فلاحين — ، فان مانعه والداه ، كما هو المنتظر ، فسيمنعان عنه المال ، وهل ترضى الفتاة به فقيراً ؟ ومع ذلك لم يعد يسعه التقهقر امام عهده ، ولا بد له من الاحتيال على والديه لاخذ حصة كبيرة من ارثه قبل ان يعلما بنيته الحقيقية من طلب المال . فأرسل فهداً يبشرهما بشفائه ويطلب منهما مبلغاً وافراً لتقديم هدايا فاخرة الى مضيفيه .

***

اما ما كان من الاميرة دلال فقد اهتز قلبها فرحاً لما علمت بما أتاه حسن في سبيلها وسبيل الوطن من اعمال البطولة والمروءة والدهاء في الحرب الاخيرة ، وان الامير يوسف تنازل له عنها نهائياً بحضور الامير بشير ورضى والدها ووالده ، فاصبحت

خطيبته الشرعية . ولكن القلق ساورها في الوقت نفسه لسقوطه جريحًا ولا سيما لانتكاسه من شدة الفرح الذي تولاه لما وعد بها . فكان السرور والحزن يتنازعان قلبها . وزاد قلقها عندما شاهدت معارضة والدتها في هذا الزواج . فقد جاهرت هذه انها ستحول دونه مهما كلفها الامر . ولما نبهها زوجها الى خطورة موقفها ازاء الامير بشير اجابته بوقاحة :

— للامير بشير حرية التصرف في اهل بيته ، اما انا فلا اسمح له ولا للسلطان ان يتدخل في شؤوننا العائلية . لاني ربة البيت والمرجع الاخير في امر اولادي . فان لم يكن عندك الشجاعة الكافية لصون حقوق بيتك فسأتولى انا ذلك .

وفي الحال استدعت الامير يوسف وعاتبته على الحنث بعهده والتنازل للامير حسن عن حقوقه في دلال، كأنها سلعة تباع وتشرى في السوق . فأجابها الامير يوسف برزانة انه يعد الاميرة دلال أثمن من المال والمهج وانه كان على استعداد ان يفديها بحياته من ان يسمح لاي كان بنزعها منه . ولكن مصلحة الوطن ، وهي فوق المال والرجال والقلوب ، قضت عليه بهذا التنازل ، وما عاد شرفه وحق الوطن عليه يسمحان له بأن يرجع عن وعده للامير بشير والامير حسن ، الا اذا فضلته الاميرة دلال على ابن عمها . لان الدين المسيحي يمنح الفتاة حق رفض كل طالب لا يوافقها ، مهما تكن رغبة والديها فيه ، فان جاهرت الاميرة دلال امام الامير بشير او الست الكبيرة بتفضيله على الامير حسن ، استعاد حقوق التقدم عليه واصبح في حل من عهده

فسري عن والدة دلال لما سمعت بهذا الحل ورأت ان تتمسك به فتبلغ غرضها من الحؤول بين الامير حسن وابنتها وتجنب اغضاب الامير بشير واثارة العداء بين زوجها وأسرة أخيه . فابتسمت للامير يوسف وقالت له :

— اذا كان الامر كذلك فثق ان دلالاً لك ، لانها غير راغبة في ابن عمها ولها ميل خاص اليك ، وسأحملها على التصريح بذلك امام الست الكبيرة ، فلا يعود للامير بشير ما يتمسك به ، لانه مسيحي مثلنا و يحترم الشريعة الكنسية اكثر منا و يعرف

ان الكلمة الاخيرة في الزواج المسيحي للفتاة

وما خرج الامير يوسف حتى استدعت ابنتها وافهمتها انها ووالدها غير راضيين عن الامير حسن لسوء سلوكه في الماضي وشراسة أخلاقه واعتلال صحته ، فهو ان نجا من الموت لا ينجو من انحطاط القوى بسبب جرحه الاخير ، بل يعيش طول حياته سقيماً شحوباً . اما الامير يوسف فشاب في عنفوان الصحة والجمال ، فضلاً عن ثروته الوافرة وأخلاقه الرضية .

وكانت دلال عالمة بمكر والدتها وكراهتها لحسن فأجابتها برباطة جأش :

ـ اذا كان ابن عمي حسن في حالة اليأس فلننتظر يا أماه ما بقي له من الايام ولا نزد شدته شدة ونعجل في موته حزناً ، فنفتح علينا باب الملامة .

ـ بل ان مرضه فرصة نادرة لنتخلص منه ومن عهد الامير بشير له

ـ وهل يليق بنا يا أماه ان ننتهز هذه الفرصة لنخون عهده ، وقد خاطر بحياته لاجلي وربح الحرب ليربحني . وانا الآن خطيبته الشرعية فلا يجوز في شرع الدين وعرف الامراء ان اتركه وابدله بمزاحمه ، ولا سيما اني المسببة لمرضه .

ـ انك تتكلمين امامي كسيدة مطلقة الحرية فتتجاهلين ان حقوقك وحريتك في ايدي والديك وانهما وحدهما صاحبا الحل والربط في امر زواجك . فوعد الامير بشير لحسن تعدٍ على حقوقنا ولا اسمح له ولا لاكبر منه ، ما دمت في قيد الحياة ، ان يمس هذه الحقوق .

ـ لقد قطعتِ يا اماه للامير بشير عهداً علي فتنازل عن هذا الحق لابن عمي الذي ربح منه الرهان . وانت تعلمين انهما أقاما الامير بشير حكماً بينهما في هذه المنافسة وان ذلك كان برضاهما ورضى والدي وسائر الامراء . فان ارغمتِني على رفض ابن عمي تعدينا على حقوقه وثلمنا شرفنا بيدنا ، وانتِ اول من يغار على شرف الامراء وسمعة بيتنا

ـ مالنا وهذه المماحكة . لقد اخطأت في محادثتك بهذا الامر . فان ارادتي

وارادة ابيك ان تزفي الى الامير يوسف قعدان . وأنا ذاهبة معك غداً الى الست الكبيرة لابلغها عدم رغبتك في الامير حسن وارجوها الاعتذار الى الامير بشير عن مخالفتنا لوعده . لان الكلمة الاخيرة في الزواج المسيحي للوالدين . فاستعدي للسفر غداً الى بتدين واياكِ المخالفة او طرق هذا الحديث فيما بعد .

ـ انا لا اخالف لك امراً يا اماه ، ولكني حرة في الاقدام على الزواج من عدمه . فأنا افضل الانزواء في احد الديورة ونذر العفة على خيانة ابن عمي الذي فداني بدمه ورجني بجهاده !

ـ انت تحبين هـذا السافل ؟ اذاً أنت خائنة لوالديك و بيتك . اخرجي من أمامي وفكري جيداً في كلامي . وأقسم لك بشرفي اني لا أعدك ابنتي الا بعد ان تجاهري برفض ابن عمك وتفضيل الامير يوسف عليه ! . .

١٠

بين الوردتين

علم القس انطون من فهد بما كان من وقوع الامير حسن في هوى خديجه وعزمه على الاقتران بها . ناسياً خطيبته وعهوده لها ، دائساً ثمرة جهوده السابقة في سبيلها . وعرف ايضاً من جهة اخرى ما دار بين الاميرة دلال ووالدتها من الحديث وما دبرته هذه الام لحمل زوجها وابنتها على الحنث بعهودهما للامير حسن وكيف ان الاميرة الوديعة وقفت في طريق هذه المكيدة وتحملت غضب والدتها وجاهرت بتفضيلها الترهب على التخلي عن خطيبها . فرأى ان شجاعة هذه الفتاة توازي عظمة خيانة والدتها وخطيبها ، وان الامير يوسف الذي فضل تضحية قلبه على تدنيس شرفه والرجوع عن وعده يليق وحده بهذه الاميرة الباسلة .

ولكن الخوف من العواقب الوخيمة التي تعود على الوطن والامارة من زواج حسن بالفتاة الكردية حملت هـذا الكاهن الصالح الوطني على ان يتدخل في

الامر . فيمنع الامير حسن من خسارة دينه وشرفه وحقوق الامارة ، ووالدة دلال من اشعال نار العداء بين زوجها واسرة اخيه وتحدي الامير بشير حاكم البلاد ، وارغام ابنتها على الاقتران بشاب لا تميل اليه . وقد زاد امله في النجاح ثقته بان الامير حسن اذا ابتعد عن تأثير خديجه الملازمة له كالظل ، ثاب الى رشده وسمع صوت ضميره وقلبه ، فعاد الى الجهاد للوصول الى خطيبته بعزم يفوق ما أبداه لاجلها في الماضي .

وبينما كان حسن منتظراً عودة فهد خادمه اذ دخل عليه القس انطون . فلم يتمكن من اخفاء اضطرابه ، كمن يفاجأ وهو على اهبة ارتكاب جناية، ولكنه لم يلبث ان اقبل على يد استاذه وقبلها . فاحس الكاهن بارتعاش انامله وبرودتها ، لكنه تجاهل ذلك وضم حسن الى صدره طويلاً كالاب الحنون لابنه ، وهنأه بسلامته مظهراً سروره برؤيته معافى بعد زمن طويل ، وافهمه انه جاء الى دمشق بمهمة كلفه الامير بشير اياها ، وهي الاتفاق مع واليها على تأمين الطريق بين هذه المدينة العظيمة ولبنان . واخبره ان الامير بشير تسهيلاً للتجارة قد رفع رسوم الخفارة الموضوعة قديماً على خان الحصين وخان المديرج في طريق دمشق وعلى خان الناعمة في طريق صيدا على الساحل الجنوبي من لبنان ، وعلى مينائي جونيه وجبيل في طريق الساحل الشمالي منه ، اي بين بيروت وطرابلس وعكار

وبعد ان تناول الاب انطون قسطاً من الراحة وشرب القهوة اختلى بالامير حسن وسلمه كتاباً صغيراً معطراً. ففضه حسن فوجده يحوي بضع زهيرات من الياسمين وهذه الكلمة بخط دلال نفسها :

« الى ابن عمي العزيز وخطيبي الامين أدامه لي المولى سنداً وفخراً

« لقد طال غيابك واستوحشت الدار وما فيها لفراقك . اسقمني سقمك وشفاني شفاؤك ، وبت على أحر من الجمر في انتظارك . لقد انتهز الخصوم فرصة مرضك وبعدك لابعادك عن صاحبة العقد الذكي الرائحة والقلب الذهبي المرصع ، وبما ان

ولي القلوب والارواح قد أعاد اليك العافية ، أفلا تسرع قبل فوات الوقت بالعود الى حافظة عهدك خطيبتك دلال

بينما كان حسن يقرأ هذه الاسطار ويمر بنظره على تلك الكلمات المكتوبة بيد لطيفة محبة كان الاب انطون يقرأ على جبين تلميذه ما يمر به من تأثير الافكار والشعور . فظهر الاضطراب على ملامحه ، ولما لم يتجاسر على التحديق الى استاذه ، خوفاً من أن ينكشف سره ، اخذ يراجع الكتيب الى ان يملك نفسه . فامهله الكاهن ثم فاجأه بالسؤال :

ـ هل استوعبت يابني ما في هذا الكتاب ؟ هل ارتحت الى ماخطته لك أنامل خطيبتك الصغيرة من عبارات الوداد والاخلاص ؟

فتلعثم حسن وأجاب دون ان يرفع عينيه عن الكتاب :

ـ لقد فهمتُ بعضه واغلق علي بعضه . من تعني بالخصوم ؟ هل ظهر مزاحم جديد أم اخلف الامير يوسف وعده ، أو تناسى الامير بشير عهده ؟

ـ لا هـذا ولا ذاك . فالامير بشير لم يحنث في حياته بعهد ، والامير يوسف أشرف من ان يخالف موعداً . انما والدة الاميرة دلال قد ضربت بعهد الاميرين عرض الحائط وكادت المكائد لحرمانك حقك في ابنتها . فاستدعت الامير يوسف وعاتبته على تخليه عن دلال زاعمة ان ابنتها ما زالت محافظة على عهده . فأجابها الامير يوسف انه على استعداد ان يفدي الاميرة دلال بحياته ، ولكن الوطن وحرمة العهد فوق المهج ، وقد ضحى قلبه في سبيلهما . اما اذا كانت الاميرة دلال تفضله على ابن عمها فيصبح في حل من وعده . لان الدين المسيحي يعطي الفتـاة حق رفض الطالب الذي لا تميل اليه . فسرت والدتها بهذا الحل الذي يتلافى اغضاب الامير بشير وتوسيع شقة الخلاف بين زوجها واسرتكم واستدعت ابنتها وأفهمتها انها ووالدها غير راغبين فيك ، فعليها ان تصرح امام زوجة الامير بشير بتفضيل الامير يوسف عليك .

فحاولت خطيبتك ان تثني والدتها عن عزمها و بينت لها ان ذلك حنث بالوعد وثلم لشرف الامارة وخيانة في حق خطيبها الذي اكتسب يدها بجهاده في سبيل الوطن . فغضبت واحرجتها. فصرحت لها دلال انها تفضل الترهب على خيانتك . فلما تحققت والدتها من ميل ابنتها اليك وثباتها على عهدك انفجرت مرارة الحقد الكامنة في قلبها عليك ، وانهالت على الفتاة المسكينة بالكلام القارس مما لا تطيق عبدة ذليلة سماعه ، ثم طردتها من امامها الى ان ترجع عن تشبثها فيك . وقد مضت الان ثلاثة اشهر وهي تحاول بكل طرق العنف والتمليق حملها على التصريح بتفضيل الامير يوسف عليك ، فلم تفلح . وقد أكدت لي هذه الفتاة الباسلة انها تستسهل ان تذبح ذبحاً في سبيلك من ان تخونك ، فتفديك بحياتها كما فديتها بدمك . . .

ولم ينتهِ الكاهن من كلامه حتى شاهد حسن يضم الكتيب الى فمه و يقبله بحرارة متنشقاً شذا الزهيرات، التي رطبها بدموع سخينة . فتحقق الكاهن بارتياح ان حب دلال قد عاد مندفعاً الى قلب حسن طارداً كل ميل غريب . فلم يدع الفرصة تفوته وسأله بحزم :

— والان ماذا تفعل يا بني في سبيل خطيبتك الباسلة ؟

— افديها بحياتي للمرة الثانية . والويل لمن يقف في سبيلي اليها ! . . .

* * *

لازم الارق تلك الليلة الاميرَ حسن فاستوى على فراشه واطلق لافكاره العنان . فشاهد الرواية التي مثلت في لبنان لاجله : خطيبة ودودة باسلة ، والدة حانقة ماكرة جبارة ، والد متقلب جبان خنوع ، مزاحم شريف ولوع ، كاهن مخلص غيور . مثل كل من هؤلاء الاشخاص دوره بمهارة حول خطيبته الصغيرة وماز الوا يتشادونها . فأي دور يمثله هو ؟ ايترك هذه النعجة الوديعة تخطف من يده ؟

أيدوس شرف العهود والامارة لاجل فتاة غريبة عنه مذهباً ومحتداً وتهذيباً ، اغوته بخلاعتها واجتذبته بجمالها الفلاحي وغنائها البذيء ورقصها المتهتك . نعم كل ما في هذه الفتاة الكردية أمي بهيمي شهواني . فشتان ما بينها و بين دلال الاميرة المسيحية المحتشمة النبيلة في اصلها وعواطفها واخلاقها وآدابها فضلاً عن علمها ورزانتها . خديجة هي المرأة المجبولة بالشهوة . ودلال هي الملاك الطاهر المخاص . هذه الحب الحيواني المتقلب وتلك الحب السامي الثابت .

وكانت الليلة دافئة وقد ولجت الغرفةَ الواسعة انوارُ القمر الساطع خطوطاً عريضة فضية ، فنهض والتحف بعباءته المزركشة بالذهب ، فاستقبلتها اشعة القمر بالتحية فتلألأت . فسرح حسن نظره في الافق فاذا الحبال اللؤلؤية منبسطة على اسطحة الفيحاء و بساتينها وقد دار النسيم بعطور ازهارها على المنازل ونشرها بسخاء في الجو الهادىء الباسم فسكرت الطبيعة من اريجها و باتت في هدوء وخمول ، الا الجداول فقد كانت تسرح طروبة بين الاشجار والرياحين .

وكان هناك على أفريز النافذة مزهريتان نبتت في كل منها وردة حملت في عنقها زهرة تفتح كمها . احداهما بيضاء نقية لا يكاد عطرها الناعم يقوى على الوصول الى الانفاس ، ولكنه من اذكى الروائح والذها وأنفسها ، والثانية حمراء جمرية من نوع الورد الجوري تفوح منها رائحة قوية جارحة مسكرة . فأخذ حسن يتأمل الوردتين فرأى فيهما صورتي حبيبتيه . هذه سطت على قلبه بعطرها الشديد فدوخته وأنسته تلك الوردة النقية البياض مثال الطهر والرقة . هذه تضمن له اللذة البهيمية الوقتية ، وتلك السعادة الهادئة الدائمة . هذه العوبة سيلهو بها كالطفل الى حين ثم يسأمها ، وتلك ستكون شريكة حياته ، تشاطره افراحه وعواطفه وافكاره وتؤاسيه في احزانه وتمشي معه جنباً الى جنب في مصاعب الحياة واطوارها . فأيهما يقطف ؟ . . . .

فمد حسن يده الى الوردة البيضاء فقطفها وارتشف قطرات الندى من ثغرها وعلقها فوق قلبه كما علقت دلال القلب المجوهر فوق صدرها . وهتف :

— انك عطر حياتي يادلال ، وستبقين على صدري الى آخر نفس من أنفاسي ! ..

٭٭٭

وفي صباح اليوم الثالث ودع الاب انطون والامير حسن آل احمد آغا الموره‌لي شاكرين لهم حسن ضيافتهم وشديد عنايتهم . وكان الكاهن قد جلب معه لاصحاب البيت وخدمهم هدايا نفيسة من حرائر الزوق فوزعها حسن عليهم وخص خديجه بشلح فضي ناصع البياض محلى بالورود الحريرية اللامعة الالوان البديعة الصنع . اما خديجه فلم تطق الظهور أمامه للوداع بل لازمت غرفتها حانقة . ولم تتجاسر والدتها ان تسأل حسن امام الكاهن عن غرض رحلته وميعاد عودته . فقد افهمها بحضرة الاب انطون ان غيابه قصير لقضاء بعض اشغال عائلية ، فتوهمت انه ذاهب لتدبير المال اللازم لزفافه بابنتها .

اما خديجة فلم تنخدع لتيقظ قلبها بل اوجست من هذا الرحيل شراً وعدته الهجر النهائي وشعرت ، والشعور في المحب دقيق جداً ، ان حسن اذا شاهد ابنة عمه عمي عن حب غيرها . وما خفت قرقعة القافلة الراحلة في الحارة الهادئة حتى دخلت والدتها عليها فرأتها قد حلت شعرها الطويل كالارملة التي تفقد زوجها واسترسلت في البكاء واليأس . فحاولت عبثاً ان تخفف عنها وتقنعها انه ذاهب في سبيلها وعائد اليها بعد قليل . فكانت تجيبها هازة رأسها والعبرات تخنقها

– قلبي يحدثني ان هذا الكاهن رسول شؤم وان حسن قد أفلت مني الى الأبد . . . وان اعيش بعده دقيقة واحدة . . . سألحق به وامسك بتلابيبه . فان رفضني رميت بنفسي من اعلى سطح داره فيدفنني بيديه واربح دمعتين من عينيه .

فاجابتها والدتها متجلدة ، لكن نبرات صوتها كانت تخونها :

– فلننتظر يا بنيه ماذا يكون ثم نتخذ طريقاً لنا يوصلنا الى غرضنا . وأكدي ان من احبك مثل حسن لا يمكنه ان يقلع ذكرك من صدره .

ولم تمضِ ربع ساعة حتى كانت القافلة قد خرجت من ازقة دمشق الضيقة واطلت على الحقول الجميلة المزدهرة . فاستقبلهم نسيم الربيع المعطر ، فتنشقه حسن

طويلاً ، وشعر وهو يسرح نظره طليقاً فوق هذه المروج ، انه اصبح طليقاً من سجن ضيق وان هذه العطور المنعشة قد طردت من صدره الروائح المخدرة التي كادت تخنق عواطفه وتسلبه شرفه وحبه الطاهر لخطيبته العفيفة .

وكان فهد قد تقدم معلمه الى اعبيه ليبشر اهله بقدومه وتوصل بواسطة احدى خادمات دلال ان يعلمها بميعاد وصوله الى القرية . فهرول رجال الامير حسن واصدقاؤه لملاقاته وهم ينشدون الاناشيد الحماسية . ولما اطل موكبه على اعبيه وقف الرجال على الاكمة وقاموا بالاهازيج واطلاق البارود ، فأجابهم رجال القرية المجتمعون حول دار والده بالحوربة والهتاف واطلاق البنادق حتى ارتجت القرية والهضاب والاودية وأطل الجميع من النوافذ والاروقة وأسرع الامراء والوجهاء من رجال وسيدات الى دار الامير حمود لتهنئته بوصول ابنه معافى بعد غياب طويل . ولما صار حسن على مقربة من قصر عمه صوب عينيه الى غرفة دلال فاذا هي بنفسها واقفة في تلك النافذة المحبوبة، حيث رآها لاول مرة؛ وقد توسط رأسها الملائكي فضاء تلك النافذة البيضوي المخرم تخريماً دقيقاً كالاطار حول الصورة ، وتسلقت الجفنة والتفت حولها واهتزت طرباً بوريقاتها النضرة . وقد تدلى من عنق خطيبته عقد مزدوج من زهيرات الياسمين ذكراً للعقد الذي نظمته له في جنينة الشيخ لما قابلها غلساً . وشكت في شعرها الذهبي المنسدل على كتفيها عدداً كثيراً من تلك الزهيرات البيضاء المحبوبة . وحالما التقى نظرها بحسن اخذت تلوح له بمنديل صغير غير حاسبة لعيون الوشاة التي كانت ترقبها حساباً ، فهي تستقبل خطيبها الشرعي .

فهاجت في صدر حسن عواطفه فرفع من صدره الوردة البيضاء التي علقها في الليلة البارحة وضمها بعبادة الى شفتيه . فما كان من دلال الا ان نزعت من صدرها القلب المجوهر ورفعته في الفضاء لتذكره به ثم أدنته بعبادة من فمها الصغير . فتناثرت الدموع من عيني حسن فرحاً وتأثراً من هذا المظهر ولولا خوفه من افتضاح سره وحرصه على حرمة قلبه لاقتحم باب ذلك القصر وتسلق العريشة الصاعدة الى غرفة

ملاكه وضمه الى صدره طويلاً . ولكن القس انطون — الذي شاهد بحنو الاب هذا المنظر ، وهو مدبر تمثيله — اعاده الى رشده لافتاً نظره الى الجمع المحتشد امام دار ابيه والنساء المطلة من النوافذ والزغاريد التي تتصاعد من صحن الدار . ولما مر الموكب بين بيوت القرية كانت الازهار ومياه الورود تتساقط على رأس حسن والتهاني والتحيات تزف اليه كأنه ذاهب الى دار العروس .

ولما بلغ الموكب باب الدار رأى حسن والده واخوته وأقاربه ومعارفه ينتظرونه فترجل وارتمى على عنق والده وقبل يده واخوته والحاضرين . ولما دخل صحن الدار هزت الزغاريد اركانها واذا بوالدته تهرول نحوه باكية سروراً فارتمى بين ذراعيها، فضمته طويلاً الى صدرها وقبلته مراراً . ولما دخل القاعة اقبل عمه الامير حيدر والد دلال وقبله فقبل حسن يده وسلم على الحاضرين . وبعد المرطبات همس الامير حمود في اذن حسن فنهض ودخل قاعة السيدات حيث تصدرت امرأة عمه فأسرع لتقبيل يدها ولكنه احس انه يلمس عقربة . وبعد ان لثم ايدي خالاته وعماته عاد الى القاعة حيث مد سماط فاخر . واستمرت الولائم والافراح في دار الامير حمود اسبوعاً كاملاً .

وفي اليوم التالي اقام الامير حيدر وليمة لابن اخيه . ولما دخل حسن القصر حدق في نافذة غرفة دلال فلم ينظرها ، فانقبض قلبه وخاف من سوء حالها . ولم تكد الوليمة تنتهي حتى دفعه قلقه الى مفاتحة عمه بشأنها قائلاً في نفسه : في قلبي دمل يجب ان افتحه حالاً . ولما انفرد بعمه ذكره بوعده وطلب اليه رسمياً يد دلال وسأله ان يعين يوم الخطوبة الكنسية

ولم يكن الامير حيدر ينتظر ان يقدم حسن هذا الطلب بنفسه ولكنه كان مستعداً له وقد لقنته زوجته ما يجيب به . فأطرق في الارض هنيهة ثم قال له :

— انت تعلم يا حسن مقدار محبتي لك ورغبتي في ان تكون ابناً خاصاً لي ولامرأة عمك . ولكن لا يسعني ان اكره ابنتي على التخلي عن خطيبها الامير يوسف قعدان ، لان الديانة المسيحية تنهي عن ذلك . وقد جاهدنا كثيراً انا وامرأة عمك

لتحويلها عنه تلبية لرغائب الامير بشير في زفها اليك فذهبت اتعابنا ادراج الرياح .
فاضطررنا الى تحديد يوم اكليلها في الاسبوع القادم على الامير يوسف

وكان حسن يسمع كل هذا الكلام كأنه غير موجه اليه ولم يكد يصدق ان تبلغ الوقاحة من امرأة عمه هذا الحد . فتملك اعصابه وسأل عمه بشيء من رباطة الجأش :

— الامر اذاً معلق على ارادة دلال وقد خيرتموها بيني وبين الامير يوسف ففضلته علي ؟

— نعم ويا للأسف . . . .

فلم يعد حسن يملك عنان غضبه وصاح بعمه قائلاً :

— هذا كذب ونفاق ! ان دلال خطيبتي الشرعية ولا اتخلى عنها لاحد . وهي لا تتخلى عني لاكبر امير . والويل لمن يحول بيني وبينها !

قال هذا وخرج من دار عمه والغضب يغلي في صدره .

***

لما رفضت دلال ان تصرح امام الست الكبيرة بتفضيلها الامير يوسف قعدان على ابن عمها سجنتها والدتها في غرفتها ومنعت اياً كان من مقابلتها سوى الخادمة فاطمة التي كانت تكرهها . ثم استدعت الامير يوسف قعدان وافهمته انها حادثت ابنتها بامر زواجها بالامير حسن فصرحت انها غير راغبة في ابن عمها وانها تعد نفسها موعودة رسمياً للامير يوسف . ولكن خوفاً من ان يأتي الامير حسن ما توحيه اليه طياشته فيوسع شقة الخلاف بين الامراء قد استأذنت غبطة البطريرك يوحنا الحلو ففسح لهما من الخطوبة والمنادات الثلاثية في كنيسة القرية . فعليه ان يتجنب مواجهة خطيبته وان يحدد ميعاداً للاكليل في اقرب وقت . فجازت الحيلة على الامير يوسف لسروره سروراً لا يوصف بميل دلال اليه وبفوزه بها بطريقة تضمن شرفه ، وخيرّ والدتها في تحديد ميعاد الاكليل ، فجعلته بعد اسبوع

اما ما كان من الامير حسن فانه بعد خروجه غاضباً من دار عمه ركب حالاً

الى سراي بتدين حيث قابل استاذه الاب انطون واخبره بما كان من عمه وحنثه بوعده له وللامير وبما كادت له امرأته من المكايد . وطاب اليه ان يطلع الامير بشير على ذلك . ولما علم الامير بشير بالامر دهش من تحدي الامير حيدر لرغبته ومن مخالفة الامير يوسف لعهده الصريح ،ووعد الامير حسن بالتدخل،ولكنه ، خوفاً من ان يأتي بما لا تحمد عقباه ، أمره ان يلزم السراي ريثما يوفق بينه و بين عمه ومزاحمه

وفي هذه الاثناء جدد سليمان باشا والي عكا خلعة الولاية للامير بشير كعادته في كل سنة فذهب الامراء حيدر وحمود و يوسف الى بتدين يهنئونه . فانتهز الامير الفرصة وجمعهم مع حسن في جلسة خاصة لم يحضرها سوى القس انطون والمعلم بطرس بن ابرهيم كرامه كاتبه ومدبره . و بعد ان جلسوا وتناولوا القهوة وجه الامير بشير كلامه الى الامير حيدر قائلاً :

— انت تعلم يامير حيدر ان العادة المرعية في اسرتنا ان يقف كبيرها حكماً في ما يقع من الخلاف بين افرادها . وقد تنازع الامير يوسف قعدان والامير حسن حمود الاميرة دلال ابنتك وطلبا مني التحكيم بحضورك وحضور الامير حمود فجعلتها مكافأة لمن يمتاز منهما في حرب الشام . ولما كان جهاد الامير حسن في تلك الحرب، ولا سيما اتفاقه مع الاكراد الذين كانوا في خدمة يوسف باشا ، قد رجح كفتها في مصلحتنا فربحناها بحسن تدبيره وحقنا دماء رجالنا ، فحكمت له بيد الاميرة دلال وقد تنازل له عنها الامير يوسف رسمياً بحضورك ورضاك . وكنت اعلل النفس ان المشكل قد انتهى على هذه الصورة وان الاميرة دلال اصبحت من حق الامير حسن وخطيبته الشرعية لا ينازعه فيها منازع . والآن قد بلغني انك خطبتها للامير يوسف.فكيف اجزتما ذلك ؟

وكان الامير حمود فصيحاً رزيناً فأجاب بتأن وصوت واضح :

— ان حكم سعادتك في شؤون اسرتنا نافذ على الرأس لانك كبيرنا وفخرنا ، ولذلك لم امانع سعادتك في ما حكمت به في دمشق للامير حسن . ولكن والدتها ،

لاسباب عائلية داخلية لا يسعني التصريح بها الآن،رأت هذا الحكم في غير مصلحة بيتنا ، ولا سيما ان ابنتنا نفسها لم تقبل التنازل عن الامير يوسف خطيبها . وسعادتك اعلم مني بان الكنيسة المسيحية التي نأتمر بشرائعها لا تسمح بالزواج الا اذا كان الطرفان راضيين الواحد بالآخر رضاء تاماً . وهذا ما حمل زوجتي على التمسك بالامير يوسف ودعا الامير يوسف ان يعد نفسه في حل من عهده للامير حسن

ولم يتم الامير حيدر كلامه حتى نهض الامير حسن غاضباً وصاح به :

— هذا غير صحيح ! وفي يدي حجة قاطعة تنفي كلامك .

قال هذا واخرج من عبه كتاب دلال اليه وهو في دمشق وقدمه للامير بشير قائلاً

ـ ارجو سعادتك ان تقرأ هذا الكتاب فهو بخط الاميرة دلال وامضائها وموجه الي

فقرأه الامير بشير سراً والتفت الى الامير حيدر قائلاً :

— هذا كتاب تعلن فيه الاميرة دلال رغبتها في الامير حسن . ولما كان زواجها حسب قولك معلقاً على ارادتها فقد اصبحت ، حسب الشرع الالهي فضلاً عن شرع الامراء ، من حق الامير حسن

فاضطرب الامير حيدر وأجاب متلجلجاً :

— ان رضيت هي . . . فوالدتها لا ترضى . والفتاة تحت امر والدتها وطوعها . . . ومع ذلك فقد غيرت ابنتنا فكرها في الامير حسن بعد عودته من دمشق لدواع لا يصح ان اذكرها جهاراً في هذا المجلس ، وليس ذكرها من مصلحته . . . فبناء على ذلك قد حددنا يوم الأحد القادم موعداً لزفافها الى الامير يوسف واعلمنا جميع الامراء بذلك،فلم يعد في امكاننا الرجوع عنه .

فتطاير الشرر من عيني حسن وقبض على خنجره صائحاً :

ـ لقد سبق لعمي ان رفض طلبي لابنته البكر فان لم يسمح لي بهذه فلاسلام بيننا !

فقطب الامير بشير حاجبيه الكثيفين من هذه الجسارة ومن تحدي الامير حيدر لاوامره وأشار الى الحاضرين بالانصراف ، فانصرفوا مطرقي الرؤوس .

١١

الاكليل

لما خرج الامراء من مجلس الامير بشير تأخر القس انطون لديه ورجاه ان يمنع الامير حسن من اللحاق بعمه خشية ان تحمله حدته على الانتقام . فكلفه الامير بشير تبليغ الامير حسن رغبته في ان يصحبه في سفره الى عكا لتعزية الوزير بوفاة مدبره علي باشا . فبلغ الكاهن الامير حسن هذا الامر وأكد له انه سيقوم مقامه في الذهاب الى اعبيه وتدبير ما يراه موافقاً لمصلحته . ثم ودعه ولحق بالامراء ، فأمسكه الامير يوسف قعدان ورجاه ان يتولى حفلة تكليله ، فقبل الدعوة ورافق الامراء الى اعبيه ونزل في دار الامير حيدر حيث كانت استعدادات العرس قائمة على قدم وساق وقد اكتظت بالامراء والوجهاء وفي مقدمتهم الامير فاعور اخو الامير يوسف وزوج سعاد شقيقة العروس

وقد فرحت دلال بلقاء شقيقتها فرحاً لا يوصف لشوقها اليها وحاجتها اليها في عزلتها ومركزها الحرج . فافضت اليها بسرها ورجتها ان تحمل والداتها على زفها الى الامير حسن أو السماح لها بدخول الدير . فتأوهت سعاد وانفتح في قلبها جرح قديم متذكرة حبها الاول لحسن وارغام والديها اياها على التخلي عنه والتزوج بالامير فاعور ، التي لم تكن تعرفه في ذلك الحين وكان قلبها نافراً منه نفور الغزال ممن لم يستأنس به بعد . وها ان والدتها تعيد المأساة نفسها فلا أمل من ان تثنيها عن عنادها .

فاجابتها دلال انها تفكر في طريق اقرب للوصول الى غايتها وهي ان تنوب عنها بتبليغ الامير يوسف نفسه بأنها ما زالت عالقة بابن عمها وترجوه ان يتولى هو نفسه مهمة اقناع والديها بزفها الى الامير حسن فيفي بعهده نحوه ويكتسب شكرها الى الابد على هذه المروءة العظيمة .

فأجابتها سعاد :

— ان الامير يوسف ذو نفس ابية فهو لا يحجم عن تضحية قلبه في سبيل هذه المروءة ولو كانت ضد مصلحته وسيتنحى لا محالة أذا وثق من عدم رغبتك فيه . ولكن ذلك لا يزيد والدتنا الا عناداً فتصب على رأسك جام الغضب وتنتقم منك شر نقمة دون ان توافقك على رغبتك . فتكوني قد جنيت على نفسك فأغضبت والدتنا وفقدت رجلاً من احسن الرجال خصالاً وأجزلهم ثروة ومكانة . واني على يقين انك ستميلين اليه الميل كله حالما تختبرين اخلاقه وآدابه .

فلم تنبث دلال بجواب بل شعرت ان يداً حديدية قدطوقت عنقها فاستسلمت الى اليأس ثم الى البكاء . فتفطر قلب سعاد عليها ولم تجد ما تعزيها به لان بها الداء نفسه ، فكيف تشفيها . ولما لم يكن يؤذن لغيرها في دخول غرفتها لازمتها الاسبوع كله .

وفي مساء السبت السابق ليوم الاكليل اختلى القس انطون بالامير يوسف وذكره بواجب التقرب من سر الاعتراف هو وخطيبته لان الزواج سر مقدس لا يجوز الاقدام عليه الا في حال البرارة . فأذعن الامير يوسف بارتياح الى نصيحة الكاهن وسأل والدة دلال ان تأذن للقس انطون في سماع اعتراف خطيبته فأذنت، فرافق الامير يوسف الكاهن الى غرفة دلال . فلما رأت الامير اضطربت وتلعثمت ومدت اليه يداً باردة ، فضمها بكفيه طويلاً ليحول اليها بعض ما فيه من حرارة وشوق . فخفضت دلال جفنيها حياء ودب في وجنتيها الناعمتين أحمرار حاكى الورد نقاء ، فخفق قلب الامير يوسف لرؤيتها على هذه الحال من الحشمة والجمال النضر وزاد شغفاً بها وعد نفسه من اسعد رجال الارض حظاً لفوزه بهذا الملاك الطاهر الذي سيصبح في الغد رفيق حياته ونجم سعادته .

ولما اختلى الكاهن بدلال لاحظ ان القلق قد أخذ منها كل مأخذ وقد اصطكت أسنانها واكفهر لونها فخاطبها قائلاً :

— ارجوك يا حضرة الاميرة ان تتخذيني في هذه الساعة ابا لك وتوليني ثقتك التامة وتصرحي لي بضميرك بحرية تامة. واكدي يا ابنتي ان عندي من الشجاعة ما يقدرني على الدفاع عنك امام اعظم عظيم. فاكشفي لي قلبك كما هو ولا تخفي عني ادنى شعور ينبض فيه فاني عامل لمصلحتك. ولا بد للطبيب اذا اراد شفاء العليل من ان يعرف مواطن الداء فيه فيتسنى له وصف الدواء . قولي لي اذاً بصراحة هل أنت راضية بالامير يوسف ؟

فلم تجبه دلال الا بالبكاء وقد استرسلت فيه حتى اغرورقت عينا الكاهن بالدموع فعزم على العمل في مصلحة هذه الفتاة المظلومة مهما كلفه الامر . وقال لها بحنان الاب

— أكدي يا ابنتي ان سرك سيموت معي وان الله قد ارسلني في ساعة محنتك لارشدك الى ما فيه راحتك وخلاصك . فانك قادمة على خطوة خطيرة لا رجوع فيها ، سيكون من وارئها تعسك ام سعدك الحياة كلها .

فرفعت دلال نظرها الى الكاهن فقرأت في عينيه اخلاصاً وحناناً لم تعرفه في والديها . فأخذت يده وقربتها من شفتيها ولثمتها مراراً وبلتها بدموع سخينة ، فخفت رعشتها وزال الانقباض عن ملامحها فقالت له برباطة جأش وتأن :

— بما انك قد تفضلت ودعوتني ابنتك فانت لي مقام اب حقيقي لان والدي قد وطدوا النية على تضحيتي في سبيل أغراضهما وحقدهما كما ضحيا شقيقتي سعاد قبلي . ان الامير يوسف يستحق أحسن مني لما تحلى به من الخصال الحميدة ولكنني عاهدت ابن عمي حسن على نفسي وأخذت منه هذا العربون

قالت هذا وكشفت عن القلب المرصع المعلق على صدرها وقالت :

— أتذكر يا أبت زيارتك لوالدي دعد قبيل زفافها وأنت عائد مع حسن من بتدين لتطلب له يدي ؟ في صباح ذلك اليوم قابلني ابن عمي حسن في الجنينة وانا اقطف زهور الياسمين وأعقد لي منها عقداً ففاتحني بتعلقه بي بكلام يليق له

الجاد . فلم أتمكن من صده ومالت نفسي بكليتها اليه فاعطيته قلبي كله وعاهدته على أن أكون له الى المات . وانا ثابتة على عهدي ولو كلفني حياتي . ولا سيما بعد ان خاطر بنفسه في الحرب الاخيرة لاجلي ودبحني في الرهان وأصبحت خطيبته الشرعية فما العمل الان يا أبت وقد دنا ميعاد الاكليل وما جت الدار بالمدعوين . أرشدني فقد قلت ان الله أرسلك الي لتهديني في محنتي . قل لي اولا هل ابن عمي ثابت على عهده وماذا نوى فعله لمنع هذا الاكليل

فأخبرها الكاهن بما جرى للامير حسن مع والدها في مجلس الامير بشير وما كان من غضبه وتهديده وكيف ان الامير بشير امره بالتربث في السراي خوفاً من وقوع الشر بينه و بين عمه . وانه هو قد جاء ليستوثق من ثباتها على العهد وعمل ما يأول الى مصلحتهما . فسألته دلال بتلهف :

— وما رأيك الان يا ابت وكيف التخلص من هذا الموقف الحرج ؟

— اعلمي يا ابنتي ان عقد الزواج المسيحي لا يتم الا بارادة الخطيبين ، وما الكاهن الا شاهد عليهما في هذا العقد الكنسي . ولا يمكنه رفع الاكليل على رأسيهما الا اذا صرح كل منهما بحرية تامة برغبته في الاخر . فالكنيسة قد جعلت الزواج رباطاً وثيقاً غير قابل الانفصام الحياة كلها . ولكنها حكيمة عادلة ، فهي تمنح الفريقين المتعاقدين وقتاً كافياً للتعارف وحرية تامة في ابدا رأيهما . وتوجب على الكاهن ان يتثبت من رضى الفريقين قبل ان يعقد زواجهما لكيلا يعود في في المستقبل لاحدهما عذر في الطلاق من الاخر

فان لم يكن لك رغبة في الامير يوسف وصرحت بذلك امام الكاهن لا يمكنه ان يرفع على رأسك الاكليل ولو تهددوه بالقتل . فالامر اذاً معلق على ارادتك التامة لا على ارادة والديك ورفضك لا يعني المعصية بل استعمال حقك وسأتولى . انا غداً صلاة الاكليل وسأسألك امام الحاضرين اذا كنت راغبة في ان يكون الامير يوسف زوجا لك . فان لم تصرحي برضاك به أكدي ان لا قوة على الارض تستطيع

ارغامي انا او اي كاهن غيري على تكليلك . هـذا شرع الكنيسة المقدسة لا يقبل تأويلاً او مخالفة . والان وقد صرحت لك بما يوجبه علي ضميري ادعوك ان تتقدمي الى سر الاعتراف والالتجاء الى سيدتنـا مريم العذراء شفيعة البتولات لتلهمك ما فيه خيرك الروحي والزمني

. . .

ولما كان عصر اليوم التالي المعين لحفلة الاكليل اصطف الامراء والاميرات و بقية المدعو ين في صحن دار الامير حيدر الفسيح وأخذت الزغاريد تصعد من السيدات والجواري وتخرج من النوافذ والابواب ولاسيما من الطبقة العليا حيث غرفة العروس وقد مانعت دلال الممشطات والمبرجات من الاقتراب منها قائلة : ليأخذني كما انا . ولم تدع احداً يمسها سوى شقيقتها سعاد وصديقتها دعد . فضفرتا لها شعرها اللامع السواد ضفائر وارسلتاه على كتفيها وعقدتا في مؤخر كل ضفيرة النقود الذهبية . والبستاها الطنطور العالي المصاغ من الفضة الخالصة المنقوشة بخيوط الذهب وهـو لوالدتها وعلقتا في اعلاه غشاء من الحرير الابيض انحدر بطياته على كتفيها كالشلالات المزبدة . وشكتا في شعرها فوق الجبين عقوصا ذا شموس مذهبة لامعة زاد شعرها الحالك سواداً ولمعاناً وعلقتا على صدرها صليبا من الذهب الخالص في وسطه ياقوتة حمراء صافية الجوهر ، ووضعتا في رجليها خلخالين صغيرين مـن الفضة المحبكة بالذهب

ولما أطل الموكب من أعلا الدرج الرخامي الموصل بين صحن الدار وطبقتها العليا اهتزت جدرانها من الزغاريد وارتجت من صوت البنادق التي اطلقها الرجال المصطفين على السطوح وحول الدار ورددتها الهضاب والوديان . وكانت القرى المحيطة باعبيه تجاوب بالحوربة واطلاق البنادق وقرع الاجراس ، فكان يخيل للمرء ان لبنان بأسره يشارك احفاد الاميرين منصور وملحم الشهابيين بهذا الفرح وقد مدت خارج الدار الموائد وعلقت الخرفان المذبوحة على اشجار السنديان التي تكتنف الدار وتكدست حول اصولها جرار النبيذ الفاخر المعد لاهل القرية والواردين اليها.

وكان يتقدم العروس شابان من الامراء يحمل احدهما مشلحاً فاخراً مشغولاً بخيوط الفضة الخالصة وقد رصع بالورود الحريرية الحمراء المتشابكة ، ويحمل الثاني مشلحاً آخر لا يقل عن الاول جمالا ولكن لونه احمر وورودة بيضاء . ووراءهما فتيات صغيرات حاملات الشموع والرياحين . ثم برزت العروس فملا الهتاف واخذت الزغاريد ، فكانت بقامتها الهيفاء ووجهها البيضوي الشفاف وعينيها النجلاوين المنخفضتين وثغرها الارجواني المنموم اشبه بالملائكة الساجدين في صورة كنيسة القرية . وكان الطنطور الجميل يميل مع رأسها اللطيف ذات اليمين وذات الشمال وتتبعه تموجات الغشاء الابيض وقد كشفت عن صديرة قرمزية اللون مفتوحة الجناحين وعلى كل منهما وردتان كبيرتان تلألأت وريقاتها الناصعة البياض على صدر العروس . وهذه الصديرة الثمينة مع العباءة من هدايا الامير يوسف لعروسه .

ولما بلغ الموكب اسفل السلم تناول الامير يوسف يد الاميرة دلال ومر بها بين صفين من الامراء وقد عقدوا السيوف فوق رأسيهما دليلاً على التطوع للدفاع عن حياتهما وشرفها . والفت الاميرات وراءهم جوقة لطيفة للغناء ، وقد تحلين بأفخر الملابس والجواهر وزين شعورهن بالورود ووضعن الانامل على شفاههن مزغردات مهنئات حتى دخل الموكب القاعة الفسيحة فهمدت الزغاريد وانقطعت الاهازيج وصمتت البنادق والاجراس وعقب تلك الضجة العظيمة سكوت عميق احتراماً لصلاة الاكليل .

وكان القس انطون في انتظار العروسين وراء منضدة غطيت بغشاء ناعم مطرز بالذهب قد تدلت من اطرافه التخاريم البديعة وعليه صليب من نحاس وسطل من فضة للماء المكرسة وحولهما شمعتان كبيرتان ، وبالقرب منها حق الزيت المكرس واربعة اكاليل مزينة بالورود اثنان من ذهب للعروسين اشتبكت فيها ازرار الورد الحمراء مع الازرار البيضاء علامة اتحاد العروسين واثنان من فضة الواحد للاشبينة زين بالورود البيضاء المفتحة والاخر للاشبين بالورود الحمراء . فوقف العروسان

امامه محتشمين وتقدم الشابان الحاملان العباءتين المعبرتين عن ثياب العروسين فوقفا عن شماله . وكان الامير فاعور واقفاً على يمين الامير يوسف اخيه و بقربه الامير حمود والد حسن وعم العروس، مع اولاده . ووقفت سعاد على شمال العروس شقيقتها و بقربها والدتها ووالدها ثم دعد صديقتها وشقيقتها بالروح . واصطف بقية الامراء والاميرات حلقات الواحدة وراء الاخرى حتى ضاقت بهم القاعة على رحبها .

فبدأ القس انطون الصلاة بصوت واضح فضي هاتفاً وهو ينظر الى العروسين والجمهور :

– السلام معكمُ

فأجابه الشمامسة بلحن خشوعي :

– ومع روحك ايضاً يا أبانا الجليل . . .

فابتدأ الكاهن ببركة ثياب العروسين قائلاً :

بسم الاب والابن والروح القدس الاله الواحد امين . اقسم عليك ايتها الملابسَ المخلوقة بحق من اعدك زينة لجنس البشر ان تكوني ثياباً طاهرة مباركة مقدسة لا عيب فيها ولا قوة للشيطان وخدمه عليها ولا نفوذ للسحر والرقي فيها . وامنح يارب لابسيها ان يستحقا النعمة والبركة السموية و ينجوا من كل عارض وأذيـة بسم الاب والابن والروح القدس الاله الواحد

فأجاب الشمامسة بصوت رخيم تردد صداه في القاعة والقلوب :

– آمين . . .

ثم تناول الكاهن غصناً من الزيتون علامة السلام وغطسه في سطل المـاء المبارك ونثر منه على الثياب والحضور . فتقدم حاملا الثوبين وألبساهما للعروسين . فهتف الجمهور :

– بالهناء والسرور

ولحن الشامسة لحناً لطيفاً . ثم طلب القس انطون مـن الحضور السكوت

والاصغاء فساد السكوت وبدأ ببركة خاتمي العروسين قائلا :

« نطلب منك يا رب ان تبارك هذين الخاتمين وان تحدق انعام روحك القدوس بالعريس والعروس كما تحدق الخواتم بالاصبع . فينظرا اولادهما حتى الجيل الرابع والخامس »

فأنشد أحد الشمامسة بصوت في غاية الرقة والرخامة :

« المجد لله في العلا وعلى الارض السلام والرجاء الصالح لبني البشر »

فأردف الكاهن مصلياً :

« اننا نتضرع اليك ايها الاب الاله الرؤوف ان تبارك عبدك يوسف وامتك دلال وتحلهما من غلال الخطايا وان تضرم في قلبيهما نار محبتك ليرضياك بافعالهما »

ثم البس كلا من العريس والعروس خاتماً في يمينه قائلاً :

« لتمتد اليكما يمين سيدنا يسوع المسيح بالرحمة فتفوزا مع هذين الخاتمين بالنعمة والبركة والصيانة جميع ايام حياتكما »

ثم بارك الاكاليل قائلا :

« اجمع اللهم بنعمتك العريس والعروس واشبينيهما والمدعوين الى وليمتهما والفهم واربطهم برباط المودة والحب الكامل ، واحفظهم بيمينك وبارك اكاليلهم كما باركت اكليل اسحق ورفقا واكليل يعقوب وراحيل »

ثم تقدم احد الشمامسة وقرأ فصلاً من رسالة القديس بولس الرسول جاء فيه :

« ايتها النساء اخضعن لازواجكن كما تخضعن لربنا لان الرجل رأس المرأة كما ان المسيح رأس الكنيسة . ايها الرجال احبوا نساءكم كما احب المسيح بيعته وبذل نفسه دونها ليجعلها لنفسه طاهرة بهية لا عيب فيها . لان من يحب امرأته يحب نفسه فهي جسده وليس من يبغض جسده بل يعتني به ويقيته .»

ولما انتهى الشماس من القراءة رتل جوق الفتيان بلحن جميل آية الكتاب المقدس :

« هذا هو اليوم الذي صنعه الرب تعالوا لنفرح به . هللويا »

ثم ساد سكوت عميق لسماع كلام الانجيل فقرأ الاب انطون فصلاً من انجيل متى :

« في ذلك الزمان جاء الفريسيون الى يسوع ليجربوه قائلين :

أيحل للرجل أن يطلق امرأته لاجل كل علة . فأجابهم : أما قرأتم ان الله خلق الانسان منذ الابتداء ذكراً وانثى . فلهذا يترك الرجل أباه وامه ويتحد بزوجته فيصبح كلاهما جسداً واحداً . فما أزوجه الله لا يفرقه الانسان »

ولما انتهى الكاهن من تلاوة الانجيل التفت نحو العريس وباركه قائلا :

— يا حضرة الامير يوسف فليباركك الله الذي أباح منذ الابتداء الزيجة بين الرجل والمرأة وأنمى نسلهما في العالم . وليعضدك بالمال والصحة ويكثر نسلك ويجعله ذرية مباركة ثابتة في الايمان الروماني المقدس .

ثم اتجه نحو العروس وباركها قائلا :

« فليباركك الله ايتها العروس ويبارك بيتاً خرجت منه وبيتاً تدخلينه وليحل فيه دائما السلام والحب والرفاهية ويكون مقاما لاكرام اسمه ويظلله بيمينه العلوية ويملأه بالخيرات الارضية والسموية .

ثم رفع بيده أحد الاكاليل والتفت الى العريس سائلا اياه :

— حضرة الامير يوسف قعدان الشهابي هل تريد ان تأخذ الاميرة دلال حيدر الشهابية زوجة لك

فأجابه الامير يوسف بصوت واضح سمعه كل الحاضرين

— نعم

فرفع القس انطون الاكاليل على رأسه راسما عليه اشارة الصليب قائلا :

— ليكللك الرب باكايل المجد ويزينك زينة لا تبلى ويسربلك ازاء قوة العدو بسلاح غالب دائما

وما انتهى الكاهن من هذا الدعاء حتى دوت القاعة بزغاريد النساء . فانتظر الى أن همدت والتفت نحو العروس ماسكا بيده اكليلا آخر موجها اليها السؤال نفسه . وكان يلفظ كلماته بتأن وفصاحة قائلا :

— حضرة الاميرة دلال حيدر هل تريدين ان تأخذي الامير يوسف قعدان الشهابي زوجا لك

فلم يسمع للعروس جوابا . فتداركت والدتها بقولها :

— يا حرام . . . مستحية

فلم يعبأ الكاهن بذلك بل أعاد على العروس السؤال للمرة الثانية بصوت جهوري وهو يحدق بنظره فيها . فلم تتحرك شفتاها . فانتهرتها والدتها قائلة .

— إحني رأسك يا دلال علامة الايجاب

فاستدرك الكاهن قائلا :

— لا بل يجب يا حضرة الاميرة أن تجيبي على سؤالي بصوت واضح ليسمعه الحاضرون . هل ترغبين في أن يكون الامير يوسف زوجا لك . قولي تخافي . . .

فساد سكوت عميق في القاعة كأن على رؤوس الجميع الطير . ورفعت دلال عينيها الى الاب انطون فرأته ينظر اليها مشجعا . فاجابته بجنان ثابت :

— لا !.

فانقضت هذه الكلمة على الحاضرين انقضاض الصاعقة واشرأبت الاعناق وكثر التهامس واللغط . واذا بالامير يوسف يتنحى عن عروسه ويرفع الاكايل

عن رأسه قائلاً بصوت متهدج تأثراً من هذه الاهانة .

— لك تمام الحرية يا حضرة الاميرة

فصاحت بها والدتها

— ويحك ما تفعلين . قولي نعم !..

سمّرت دلال عينيها في الارض ولم تنبت ببنت شفة . فالتفتت والدتها نحو الاب انطون قائلة

— لا تكترث يا ابانا لكلامها . فهي صغيرة وجاهلة خيرها . فضلاً عن أنها تحت طوعنا وارادتنا . وقد اعطيناها للامير يوسف فليس لها أن تملي علينا ارادتها . كللها ولا تعبأ بما تقول

فأجابها القس انطون

— لا يمكنني أن ارفع اكليلاً على رأسها الا اذا اجابت بنعم

فحملقت المرأة بالكاهن صارخة

— وهل لمثلك ان يحكم على الامراء . أنت مأجور لتكلل . فكلل ولا شأن لك بغير ذلك

فاجابها الكاهن بهدوء ورباطة جأش

— انا اعرف واجبي حق المعرفة ولا يمكن أن احيد عنه قيد شبر لا أنا ولا أي كاهن غيري ولو اعطيت ذهب العالم

فدخل الامير حيدر والد العروس قائلاً :

— ان الارادة في الزواج للوالدين لا للابنة . فنحن نريد أن تكلل ابنتنا على الامير يوسف فقم بوظيفتك بدون مماحكة !

فاجاب القس انطون بجرأة وقد رفع صوته عالياً .

— الزواج يا حضرة الامير عقد مقدس بين العروسين لادخل لغيرهما فيه سوى بصفة شهود . ولا يصح هذا العقد في شرع الديانة المسيحية الا اذا اظهر كل من المتعاقدين ارادته بحرية تامة . فان لم تجب الاميرة دلال على سؤالي بالايجاب فلا قوة في الارض ترغمني على تكليلها . وخير

لي أن أذبح على هذه المنضدة المقدسة ذبحاً من أن أخلّ بواجبي المقدس
فرفعت والدة دلال يدها بغضب على رأس ابنتها صارخة :

قولي نعم يا عنيدة أو جعلتك جثة هامدة تحت قدمي !

فزاد وجه الفتاة اصفراراً لكنها ظلت مطرقة الرأس صامتة

فصاحت والدتها وقد جحظت عيناها وارتعدت فرائصها غضبا

— يا للعار ! يا للعار ! أبلغت بك الوقاحة يا شقية ان تجمعي علينا كل هذا الجمهور ليشهد الفضيحة التي تجلبينها لدار الامير حيدر . ليتني متّ قبل أن ولدتك ! . .

فهاج هذا الكلام غضب الامير حيدر فاستل خنجره وتقدم نحو ابنته وصاح بها :

— قولي نعم يا شقية والا ذبحتك بهذا الخنجر !

فرفعت دلال عينيها اليه بوداعة الشاة المستعدة للذبح وفتحت صدرها قائلة بصوت مجروح

— اذبحني يا أبتِ

ولم تتم كلامها حتى هوى والدها بالخنجر على قلبها . فسقطت بين يدي سعاد .

وهمّ ان يجهز عليها بطعنة ثانية لو لم يقبض الامير يوسف على يده بيد من حديد صائحا .

— ويحك ما تفعل !

. . .

وتبدلت الزغاريد والاهازيج في دار الامير حيدر بالندب والولاويل وحملت دلال الى غرفتها وقد تخضبت ثيابها البيضاء بدمها الذكي . ومدت على فراشها جثة هامدة ضحية اخلاصها وشجاعتها . . .

(لها صلة)

هدايا وردت الى المجلة

خبايا الزوايا في تاريخ صيدنايا — الاديب الصديق حبيب زيات من أركان التاريخ الوطني . يجمع سعة النظر والصدر والعلم، وضيق الذمة في التدقيق والتحقيق والجلد في التفتيش والتنقيب ، الى متانة العبارة وطلاوتها وروانق التنسيق والتنظيم . كما تشهد له مقالاته وأبحاثه في المجلات ، وخاصة هذا الكتاب الدائر حول موضوع وعر عقيم ، اي تاريخ صيدنايا وديرها القديم . فقد جمع فيه ما أمكن من المعلومات نقلا عن اثار القرية ومخطوطات الدير ورحلات الغربيين وتواريخ الشرقيين واوراق خزائن الفاتيكان والمجمع المقدس وبقية مكاتب اوربا . فجاء في ٢٩٦ صفحة بحجم ٨ وقدمته مجلة المسرة هدية لقرائها ونعم الهدية فهو تحفة من تاريخ الوطن .

المثالث والمثاني — ثلاث مجلدات تؤلف ديوان الشاعر اللبناني حليم دموس ، صاحب جريدة الاقلام الظريفة ، اذا فتحت جزءه الاول علقت به وعشقت روح صاحبه ونظمه وتتبعته بارتياح ولذة في اطوار حياته وتطور شعوره . من شاب أنيق في ظاهره وباطنه رقيق في عاطفته ووطنيته في نظمه ونثره، في علاقاته وآداب سلوكه وسلامة ذوقه ، الى زوج ودود حليم أمين ، الى والد يذوب حنانا وحبا و تشتعل ضلوعه هما وغما لادنى طارىء على أسرته العزيزة وفلذتي كبده

خريطة لبنان — عني بوضعها الاديب شكري عطاالله فجاءت واضحة حاوية اسماء قرى لبنان تقريبا مقسمة على مقاطعاتها موضوعة حسب مسافاتها لا يستغني عنها كل لبناني ومصطاف وسائح وموظف وكاتب . نحث الجميع على اقتنائها من مكتبه ازاء المفوضية الكبرى او من بقية مكاتب بيروت

8me Année N.o 3 15 mai 1933

La Revue Patriarcale

Rédacteur : L'abbé *PAUL CARALI* Direction : Beit-Chebab Liban

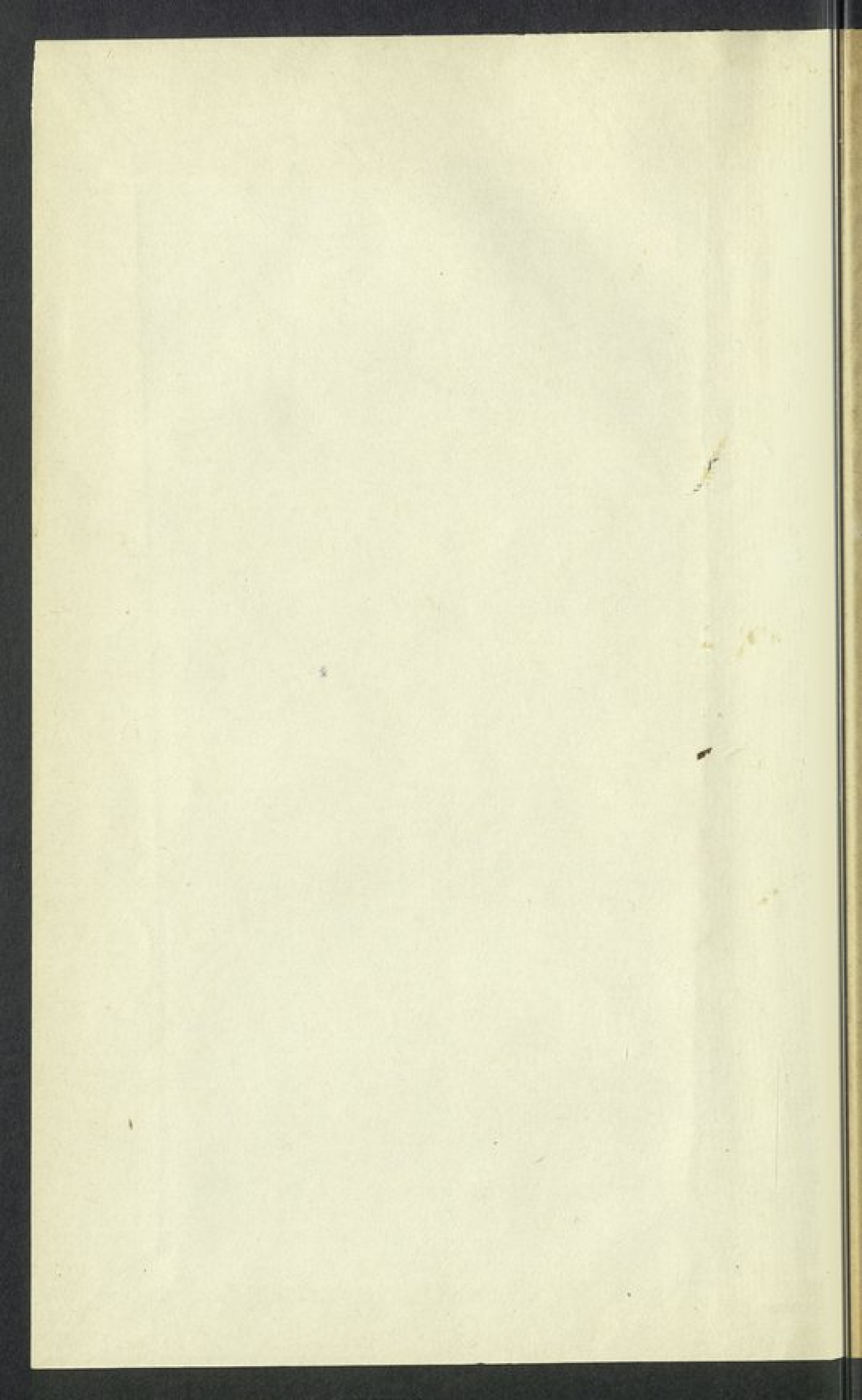
DALAL

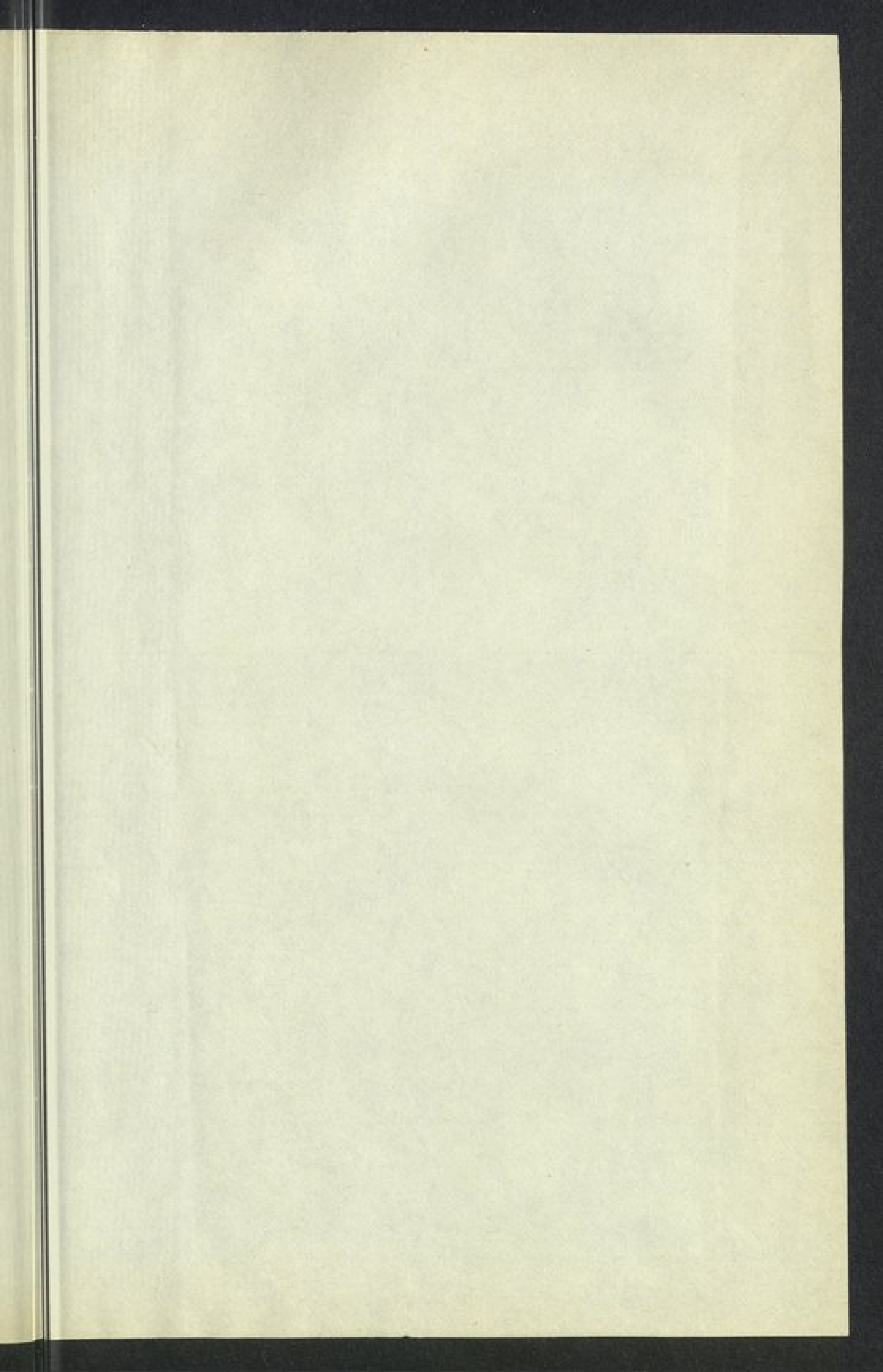
Roman Historique Libanais

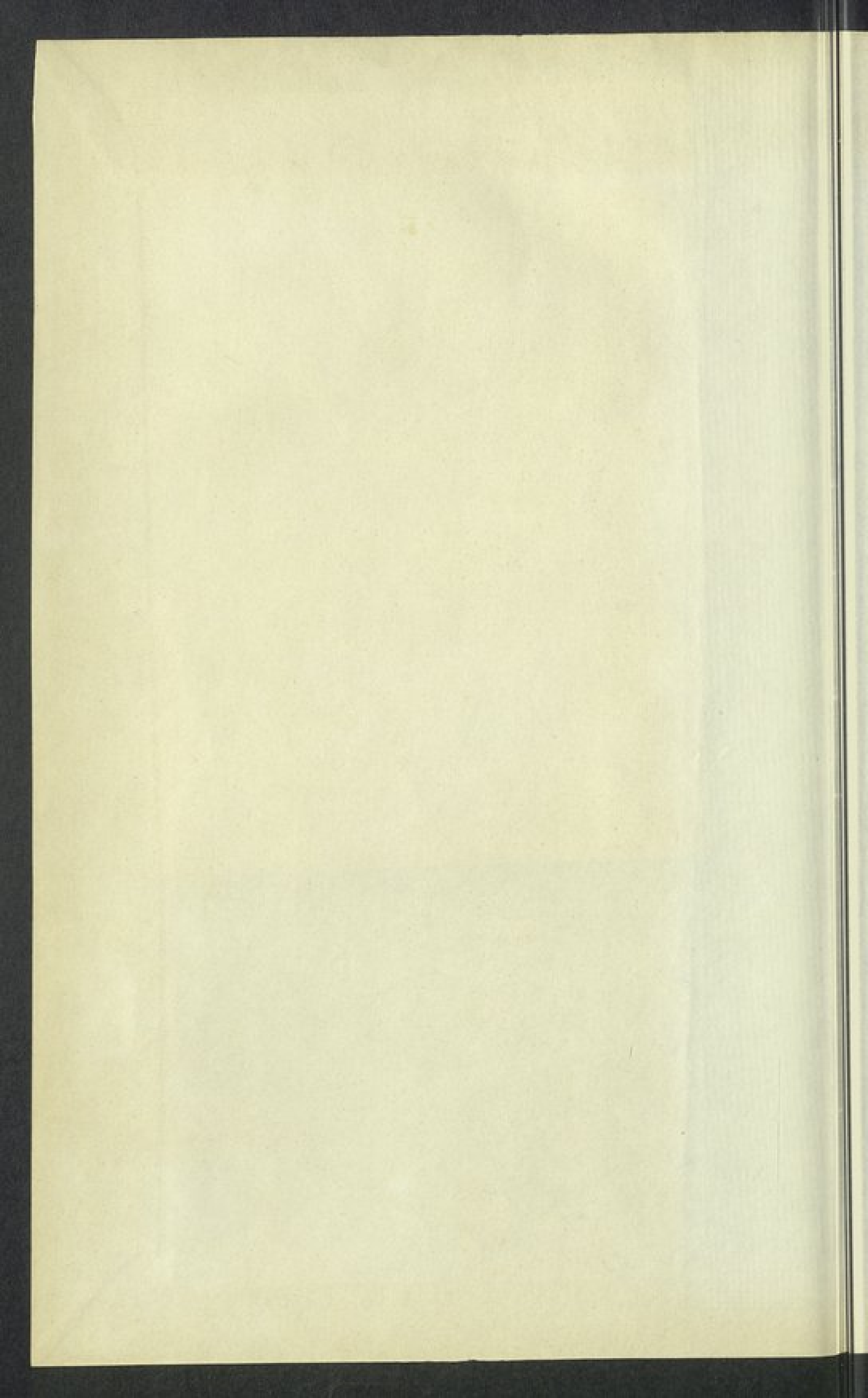
1810 — 1830

PAR

Camill Carali







DATE DUE

